كتاب المواهب ١٧

المجلس الأعلى للثقافة

الكتاب الفائز بالجائزة الأولى للمجموعة القصصية فى مسابقة المواهب دورة الروائي بهاء طاهر عام ٢٠١٤ - ٢٠١٥

هل سيأخذني إلى هناك؟

سعدية عبد التواب

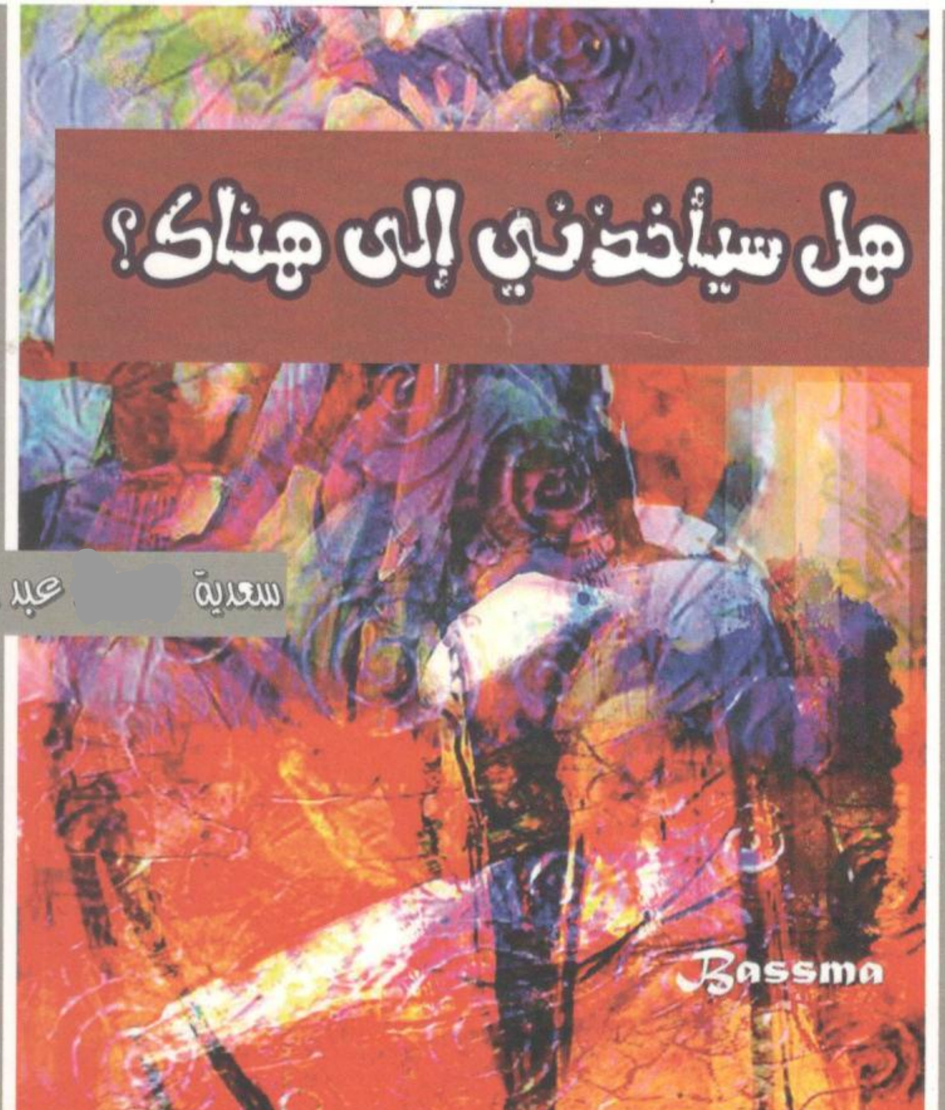

مجموعة قصصية

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

هل سيأخذني إلى هناك؟

مجموعة قصصية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الهيئة المصرية العامة للكتاب

كتاب المواهب
سلسة تُغنى بنشر إبداعات شباب مصر فى المجالات الأدبية

***

أمين عام المجلس الأعلى للثقافة
أ.د. / أمل الصبّان

رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب
د. هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للشئون الأدبية والمسابقات
محمد عبد الحافظ ناصف

مدير عام الإدارة العامة للشئون الأدبية
نبوية طلعت محمود

المشرف على التحرير
إسماعيل نجيب

الغلاف
بسمة حسين

المراسلات باسم : الإدارة العامة للشئون الأدبية.
على العنوان التالى : وزارة الثقافة - 44 شارع المساحة - الدقى - الجيزة - الدور الرابع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

كتاب المواهب
سلسلة تُغنى بنشر إبداعات شباب مصر فى المجالات الأدبية

***

أمين عام المجلس الأعلى للثقافة
أ.د. / أمل الصبّان

رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب
د. هيثم الحاج على

رئيس الإدارة المركزية للشئون الأدبية والمسابقات
محمد عبد الحافظ ناصف

مدير عام الإدارة العامة للشئون الأدبية
نبوية طلعت محمود

المشرف على التحرير
إسماعيل نجيب

الغلاف
بسمة حسين

المراسلات باسم : الإدارة العامة للشئون الأدبية.
على العنوان التالى : وزارة الثقافة - 44 شارع المساحة - الدقى - الجيزة - الدور الرابع

الخوذة

يخبرني . وهو يقص لي . كيف قتل الفأر، الذي عذبني لأيام: "إنه صعب عليه، لدرجة أنه كان هيتراجع عن قتله!"، لم أهتم بكلامه، وأنا أقاوم إشمئزازي من حكاية الفأر، الذي سقط أثناء مطاردته في فتحة المرحاض، فأغرقه هو بماء "الدش" المتحرك، حتى غرق تمامًا، واختفي في مواسير الصرف الصحي للأبد.

يعني هو صعب عليك، وأنا لا؟ مش كفاية أنه قرفني أسبوع؟

حكى لي كيف أثرت في نفسه جدًا، مقاومة هذا الكائن للاحتفاظ بحياته . رغم بؤسها، فتذكرت: "الناس من هول الحياة، موتى على قيد الحياة!"،

حتى زمن قريب لم يكن الموت ضمن مخططاتي، كنت أدرس وأعمل، وأحب وأنجب الأطفال، وكأنني سأعيش للأبد. ولكنه . الآن . حاضر، وبقوة، في كل أيامي، لا يمر يوم دون أن أفكر بأني سأموت، ولا يشغلني لحظتها جسدي، وماذا سيحل به؛ لأني أعرف أنه سيكون مشكلة شخص آخر، وعليه هو حلها.

من سيكون هذا الشخص الآخر؟ كريم . زوجى، أم أسامة . ابني الأصغر! لازالت أصر على أنه الأصغر، رغم أني فعليًا، ليس لي أولاد غيره . على قيد الحياة!

يشغلني مع خاطر قدوم الموت، قصة الألم، هل الموت مؤلم؟ أفكر كثيراً، وأتأثر بأشياء كانت تمر من قبل مرور الكرام، فرغم مشاهدتي لفيلم "المريض الإنكليزي" . كثيراً، إلا أني لم أتوقف . يومًا . عند لحظة وفاة "كاثرين"، دائمًا ما كان يعنيني . فقط . رومانسية الحدث، كما أن غرام حبيبها لها، هو ما كان يهمني في الفيلم. الآن، أشاهده فاستيقظ . في الصباح، وأقول لجارتي إني أريد أن أكون جميلة بعد الموت، مثلما بدت "كاثرين" في الفيلم!

أحسد كثيراً هؤلاء الذين طلبوا من ذويهم شربة ما، ثم ماتوا بهدوء، وبدون وجع، وربما مع ابتسامة مبهمة على ووجوهم.

في نهار مشمس، كنت أركب حافلة؛ لأنتقل من مدينة لأخرى، بكيت . لأول مرة منذ فقدته . وأنا أفكر: لماذا لا أقوى على الانتحار؟

الخوذة تأتيني في الأحلام كثيراً، ولا يأتي هو! هل يلومني؛ لأني أنا من أشتري الموت له؟

الخوذة يا رامي، إياك تسوق من غيرها!
حاضر يا ماما.

لم يُحْضِر شيئًا يا حبيبي! لم يحضر بُعْدُك أي شئ، سوى عمرة لبيت الله، جائتني . دون أن أطلبها بشكل إعجازي! فكرت وقتها، هل يقايضيني الله؟

تخبرني العمة الكبيرة، وأنا أزورها في المستشفي: أن ابنها يتمنى موتها؛ حتى يرثها، وأنها تعرف أن الله يرد لها ذلك؛ لأنها سبق، وأن حلمت بموت أبيها؛ لترثه.
من سينتظر موتي؟ هل نربي أولادنا؛ حتى يحلموا بموتنا؟

لن أغفر لهم أبدًا أنهم حرموني من رؤيته لآخر مرة، ورغم كل إصرارهم في القول على أنه بدا سليمًا وجميلاً . كما كان دائمًا . لم أصدقهم، على الرغم من أني قرأت بعد ذلك، وتأكدت من أن النزيف الداخلي . فعلاً . مميت، حتى دون أي خدش على الجسد الخارجي!
هل تألم؟ مستعدة أن أُقَبِّلَ الأرض تحت قدمي قاتله؛ ليقول لي الحقيقة، سيبقى القاتل، هو آخر من رآه.
لا أريد القصاص منه، إذا عرفته، أريد أن أعرف . فقط . هل تألم؟
جعلت الصيدلي يؤكد لي، أكثر من مرة أن السم يقتل بشكل فوري، سألني . وأنا أعيد عليه السؤال: "هو في أيه يا مدام؟"، أجبته: "الفأر بيصعب عليا، مش لازم يتألم، وهو بيموت."،

هو أخفي سخريته، وأنا أخفيت السم في حقيبتي وغادرت.

فى حياتهما امرأة

يدفعه حبه للقهوة إلى التردد . أحيانًا . على هذا الحي الشعبي، معتقدًا . دائمًا . أن هذا البنَّان كنزٌ مخفي، لا يعرفه الكثيرون. في ذلك اليوم جرى ريقه على عربة الفول . أيضًا؛ فأشترى عددًا من الأرغفة، وجلس في مقهى بلدي . مقابل للبنَّان.

أثناء جلسته جاءت طفلة هزيلة . تبدو في السادسة تقريبًا . سألته، وهى تبتسم، مشيرة إلى الطعام:
أيه ده؟
أعطاها رغيفًا، ابتعدت قليلاً عنه؛ لتأكله، ثم جاءت من جديدٍ . وفي لعبٍ طفولي بدا له سخيفًا . ظلت تضربه في قدمه، فقال لها بصوت . حاول أن يجعله هادئًا: اقعدي على حيلك يا شاطرة!
رَدَّتْ عليه . بسرعة، وبصوت عالٍ: اقعد على حجرك.. إزاي يعني ها؟!

صُعِقَ . للحظة، و لم يفهم، اخذت تكرر السؤال وتلح ، انتفض، دفع حسابه، و خرج مسرعًا. أدار سيارته . و قبل أن يبتعد . كانت البنت قد نسيته، وبدأت في اللعب مع أخرى . لا تزيد عنها في الحجم، و لا في السن.
انحنت الأولى إلى الأمام، وظلت الثانية تميل نحوها، وكأنها تُدْخِلُ وتُخْرِجُ شيئًا من موخرة الأولى!

في المساء، حكى لصديقه ما رأى، فضحك، وسأله.. لماذا انصرفت سريعًا؟
أجابه، بأنه خاف.. "أصل محدش هيصدق.. أني مقولتلهاش تعالي اقعدي على حجري"!
أضاف صديقه: إن طريقة لعبهما غير عادية، وإنه من الموكد وجود (مرأة شِمَال) في حياة الطفلتين.

بعد أيام، كان نائمًا، واستيقظ على غثيان.
أفرغ من معدته، قهوة سوداء، على شكل عرائس بلا أكتاف!

غرباء في الليل

أنا و أنت و الشوارع الواسعة.. العرق و البيوت الجميلة.. الدموع و إشارات المرور.. الشمس.. و سندوتشات الفول.

كلنا.. كلنا لوحة مرسومة بالرمال.. كلنا لسنا إلا حفنة رمال.. في يد رسام حداثي ماهر.. يملئ كفه بنا.. ثم ينثرنا يمينًا و يسارًا. فوق و تحت.. يصنع منا تلك الحياة.

بحرفة يرسمني، و يرسمك.. و يفتح لنا شباكًا.. و يضع في حضرتنا . في لحظة ما . مراهقين صاخبين.. عمري يبلغ ضعف الواحد منهما.. المراهقان يضحكان طوال الوقت.. و يضحكان سريعًا.. يد الرسام تضع التفاصيل.. ترتعش فجأة.. وهو يضع صوت "فرانك سيناترا".. يغني: "الغرباء ليلًا." المراهقان يبديان إعجابهما بها.. يقول حبيبي، شيئًا عن أمريكا في الخمسينيات، يجيب أحداهما: بأنه رأها في الأفلام، وأنها جميلة.

يستخدمان أجهزة حديثة . أي باد، تابلت . أشياءً في يديهما؛ تجعلهما على اتصال بالعالم كله في لحظة!

يفشي أحدهما . بمزاح . سر الآخر، عن أنه يحب فتاة مسيحية، يضحكان ويتضاربان. ويصر الأول أنه يحكي عنها . طوال الليل، وأنه يعشقها، وأن اسمها "ديانا".

يسألوننا عن الحب.. ويقاطعان حديثنا بالضحك.. أنا وحبيبي، نبتسم لهما ويحرك قلبينا شئٌ من الحنين.

الرسام مازال هنا.. الرسام ملَّ مناً.. ومن الشباك ومن المراهقين. يتركنا.. ويذهب للنوم.. بعد قليل يأتي رسامٌ آخر، وبحركة واحدة من أصابعه ينهي وجودنا كله.. يبعثر الرمال؛ ليرسم لوحة جديدة.. فأنتهي.. انتهي . تمامًا . أنا وأنت، وكل عالمنا هذا.. ولم أعرف . أبدًا . الجد من الهزل في حكاية حب المراهق لـ"ديانا"، ولكن ما جدوى أخذ أي شئ على محمل الجد، إذا كنا مجرد حفنة من رمال؟!

سيرسم الرسام الآخر عالمًا جديدًا. ربما به بحرٌ يأخذ مكان شوارعنا.. والشباك الذي كنا نطل منه.. ربما سيبقى في العالم الجديد فقط، قصص حب جديدة، و صوت "سيناترا" يغني للغرباء ليلًا، ويدعو السكان الجدد؛ ليلتقوا في دعوة حب لأمريكا في الخمسينات!

داليا

اليوم عيد ميلادي الثالث والعشرين، قارب اليوم على الانتهاء، هذا يعني أني سأبدأ . بعد ساعات . أول أيام عامي الرابع والعشرين، محمود اشترى لي نظارة شمس، بدلاً من نظارتي التي انكسرت، جربتها . عدة مرات . أمام المراة، بدت مناسبة لوجهي جدًا، محمود . دائمًا . يعرف ما يناسبني، يعرف ما أحتاجه، يعرف ما الذي يليق بي، إنه ليس مجرد أخي الذي يصغرني بعام، إنه كل حياتي، لا.. هو الجزء الأكبر من حياتي، الحقيقة أنه حتى دخولي الجامعة . تقريبًا . كان كل حياتي، أما الآن فهناك آخرون، ناس كثيرة، لكن ليسوا بأهمية محمود، لا.. هناك ندى و زيزو، هما . أيضًا . في أهمية محمود، وربما أهم منه، لا.. لا يوجد أحد . في الدنيا . أهم، ولا أعز . عندي . من محمود.

أشعر بصداع، ليس معي أقراص، سأتصل بشريف؛ ليأتي لي بأقراص، إنه لا يرد. ماذا أفعل الآن؟ هل أنام؟ لا.. لا أريد أن أنام، اليوم غريب، كلهم انشغلوا عني . بدون ترتيب . في يوم واحد، لن ينفع أن أتصل بـ ندى أو زيزو أو محمود . الآن، سأقضي الليلة بمفردي، أو أبحث عن أحد غيرهم، لا أريد أن تعود سلوى، وتجدني في البيت، وتبدأ في التحقيق المعتاد، كلما رأتني، إنها لا تتذكر أن لها ابنة إلا عندما تلتقي بي . بالصدفة، وقتها . فقط . تتذكر أنها يجب أن تسألني عن أحوالي وحياتي، وغالباً لا تنتظر إجابة، تبدأ في نوبة التأنيب والتوبيخ، كنت في السابق أرد عليها، الكلمة بكلمة، وأصرخ طويلاً أمامها، أما الآن، أتركها تقول ما تشاء، وفي الغالب أشرد منها، حتى تنتهي . تمامًا . من نوبتها، كل ما هناك أني أزيد الجرعة قرصًا بعد لقائها؛ حتى أنسى أنها كانت هنا،

لابد أن أخرج، أشعر بملل، سأتصل بشريف مرة أخرى، لايرد أيضًا، أوووف.. ماله هذا اليوم منحوس من أوله! ولكن طبعًا.. أليس عيد ميلادي! لابد أن يكون منحوسًا، ما علينا، ليس بموضوعي . الآن . عمري المنحوس، أريد أن أخرج، الهاتف يرن، من يا ترى؟ اممم، مستر علاء، "لا مش وقتك خالص، أنا عندي صداع فظيع." تركت الهاتف يرن . بعدما أغلقت صوت الجرس . كانت الشاشة تضئ أمامي باسم "مستر علاء"، ولا تريد أن تنطفئ، أغمضت عيني، ماذا يريد مني الآن؟

اليوم إجازتي، ألا يكفيه الأسبوع كله، ألا يشبع! فتحت عيني، الشاشة مظلمة، لكن أنا آخر إنسانة تتكلم عن الشبع، مش كده؟! لا أنا لست مثله، أنا دائمة الجوع، فعلاً، ولكن ليس بطريقته، ليس بطريقة أي رجل من الرجال، متى اكتشفت هذا الاكتشاف الخطير، اكتشاف اختلاف الرغبة عندي عن الرجال، على الرغم من أن ظاهرها واحد، وهو النهم، إلا أني مختلفة، والله العظيم مختلفة،

زيزو . فقط . هو الذي يعرفني على حقيقتي، هو الوحيد الذي يحبني ويحترمني، نعم هو الوحيد الذي يحبني، ربما أكثر من محمود، أنا ومحمود، وعينا على الدنيا لاقينا نفسنا في شقة واسعة، من غير أب ولا أم، أبي طلق أمي، واختفى من حياتنا نهائياً . قبل حتى أن يصنع معنا ذكرى، أو صورة تبقى في ذاكرتنا عنه . حتى أننا لا نعرف شكله، أمي أحرقت كل صوره بعد الطلاق . بس هي ربنا عوضها، عيادتها شغالة نار، ومعها فلوس كتير، هي صحيح بتديني بطلوع الروح، بس برضه أنا باخد منها كتير . الحقيقة أني عمري ما شعرت أني محتاجة إلى نقود، ما معي من مصروف من أمي . دائمًا . كان يكفيني ويفيض، لكن الوضع اختلف الآن، أنا دايماً دلوقتي عايزه فلوس.. ولما تيجي الفلوس، بتخلص في ساعتها! أنا الآن أحتاج إلى أشياء كثيرة، أهم احتياجاتي . الآن . العطور والأقراص، لا أستطيع أن أعيش بدونهما، لابد أن أغرق روحي . ليلاً ونهاراً . في عطوري المفضلة، وكلها أسعارها غالية جدًا، لا أرضى بالعطور الرخيصة.. إنها تزيد من إحساسي بعدم النظافة.. عندما لا أضع العطر أشم رائحتي وكأنها رائحة كلب ميت.. محمود قال لي مئات المرات إنه ليس هناك . على الإطلاق . أي رائحة سيئة تنبعث من جسدي.. ولكني لا أصدقه.. هو فقط يحبني.. ولا يريد أن يجرح مشاعري.. على العموم هو . أيضًا . أحب عطوري، واعتاد عليها، هو يعشقها ويفضل أنواعاً على أنواع، عكس زيزو . تمامًا، زيزو دائمًا ما يتشاجر معي، ويطلب مني ألا أستعملها؛ لأن عنده حساسية من الروائح النفاذة. طب وأنا هاعمل أيه، مش ممكن . أبداً . أخليه يشم ريحتي الوحشة دي، مش ممكن أبدًا! عمومًا زيزو . دائمًا . معترض، دائمًا يتشاجر معي على شئ ما، لكني أعلم جيدًا أنه يحبني، حتى وهو يشتمني.. ويهدد بقطع علاقته بي، أعرف أنه يحبني.. ولا يستطيع أن يعيش من غيري، لا أحد غيري يستطيع أن يصنع له ما أصنعه أنا. أنا عارفه أنه مش بيحبني.. بس علشان بعرف أبسطه.. أنا متأكده أنه بيحبني أنا، أنا داليا.

هو الوحيد الذي أشعر معه بشئ مختلف، بيحبني زي ما يكون أبويا.. اللي نفسه يشوفني أحسن

واحدة في الدنيا. حتى عندما ضربني.. وكسر ذراعي، كنت عارفه أنه بيعمل كده علشاني؛ علشان خايف عليا. هو قال ذلك . أيضًا . عندما ذهبت إليه؛ لأعتذر له . بعد عدة أيام من كسره لذراعي. يومها قَبَّل أصابعي الظاهرة من الجبس، وهو يبكي بعنف، ولم يهدأ إلا بعدما مصصت له عضوه مرات . كما يحب . حتى أفرغ طاقته، وارتاح.

محمود دائمًا يقول لي: "عبد العزيز ده بيكرهك، وبيتكلم عنك وحش في كل حتة، زيزو مش بيحبك، أنتي فاهمة غلط."

لا أنا متأكدة أن محمود مخطئ في حكمه على زيزو. محمود دايمًا كده، مش عايزني أعمل حاجة في الدنيا غير أني أفضل جانبه. أنا . أيضًا . لم يكن يريحيني شئٌ إلا قربي من محمود، كنا بنعمل كل حاجة سوا، بناكل.. ونلعب.. ونذاكر. كل حاجة مع بعض.

دائمًا وأنا طفلة كنت أشعر بضيق . لا أفهم سببه، دائمًا قلبي مقبوض وحزين، لكن أحيانًا الحزن ده كان يتحول إلى عذاب لا أقدر على احتماله، كنت أبكي بعنف، ولا آكل لأيام! محمود كان بيحتار فيًا، وسلوى كانت بتقولي: "أنا مش ناقصة دلع.. كفاية قرف الشغل عليًا." النوبة دي كان ممكن تستمر لساعات.. وأحيانًا لأيام. حتى لعبة محمود التي كان وقتها علَّمها لي . حديثًا . لم تكن تخرجني من تلك النوبة، لكن كان بيمر الوقت، وكنت برجع لحالتي الطبيعية، الحياة بقلب مقبوض وحزين، ولكن بدون بكاء عنيف،

الحقيقة أن تلك الحالة لم يسيطر عليها شئ . في حياتي . إلا الأقراص الرائعة . التي أعطاها لي شريف يومًا ما، هي غالية حبتين، لكن أنا كنت أدفع لشريف بالطريقة التي تعلمتها من ندى، لكنه يكون . أحيانًا . محتاجًا إلى نقود، ويصر على أن يكون الدفع بالعملة العادية.

عندما قابلت "ندى" . في الجامعة . قالت عني إني عبيطة: "أنتي هبلة، اللي عايز حاجة يدفع تمنها، أنتي فاتحاها سبيل!"،

لم أكن أعرف أنه يمكنني أن آخذ نقودًا من ولد من زملائي، كنت ببقى مبسوطة لما أكون معهم، كنت دايمًا بحس أني محتاجة ولد أفضل ألعب معه، لحد ما يتنفض شوية ويهدأ، كنت بحب قوي إحساس أني قدرت أبسطه!

محمود علمني تلك اللعبة، كنت أظل أقَبّل شفتيه، وأحضنه أحضانًا كثيرة؛ حتى ينتفض ويهدأ، ويقبلني على جبيني . برقة، ويقول إني أغلى ما في حياته.

لكن الأولاد . في الدرس الخصوصي . لم يكن أحد منهم يُقَبِّلَني على جبيني، ويقول ذلك، ولا حتى زملاء الجامعة كانوا يقولون ذلك، لكن زيزو كنت أشعر بقُبْلَة الرقة . تلك . في عيونه طوال الوقت، كنت أشعر بها في يديه وهو يلمسني، في لسانه وهو ينهرني، في كفه، حتى وهو يضربني.

ولذلك لا أستطيع أبدًا أن أبعد عن زيزو، دائمًا، أحاول أن أفعل ما يريد، وأن لا ألعب لعبتي مع أحد غيره، أنا أكون . كما يقول . محترمة، أنا بحاول والله، أنا . الآن مثلا . لا ألعب إلا مع شريف؛ حتى يأتي لي بالأقراص، ومع مستر علاء؛ حتى يعطيني مكافأة، وحتى لا يطردني من عملي، أنا ما صدقت لقيت شغل، وأحيانًا مع مدحت؛ لما بكون محتاجة قرشين. هما دول والله، يعني أنا بطلت مع ناس كتير؛ علشان خاطره، ومع ذلك في أيام كثيرة بيغضب مني بدون سبب، ومش بيرضى يقابلني، ومش بيرد عليا حتى في التليفون، ولما يرجع بيقول . بِغُلْب كده: "كنت بحاول أخلص منك!"،

طب وليه، وأنا باسمع كلامه في كل حاجة، حتى لما اتخنقت مع علياء . زميلتى في الكلية . لما جت قالت لى عايزه مامتك تعمل لى عملية إجهاض، زعقت معها، وهى قعدت تزعق، وتقول كلام كتير، وإنها هتدفع زى ما ماما متعودة تاخد في العملية، مش عايزاها مجانًا، كنت عايزة أروح أضربها، بس هو قال لي: "لمي الدور.. وملكيش دعوى بيها."، وأنا سمعت كلامه.

عندما حكيت له أن محمود هو أول من علمني لعبتي، فتح عينيه على الآخر قوى كده، وبعدين طاطا رأسه، وخبا عينيه بكفه، ولم يتحدث معى مرة أخرى في الموضوع. أنا عرفت . لما كبرت . أنها مصيبة أني بلعب مع محمود، بس أنا ومحمود ملناش غير بعض، هو كل حياتي، لا.. هو.. وندى.. وزيزو.. كل حياتى.

أم وحبيب

لقاء

تجمعنا . أنا وأنت . الفكرة، التي غنت بها أم كلثوم:

(اللي شفته.. قبل ما تشوفك عنيا.. عمر ضايع.. يحسبوه إزاي عليّا.. رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا.. علموني أندم على الماضي وجراحه...)

في وحدتي الزاخرة بك، أفكر أن ما ضاع من عمري قبلك ليس بالقليل، وتأخذني حسرة طفيفة، أتذكر يوم لقاءنا . لأول مرة . وقتها كنت عارية، إلا من وجعي وبقايا وجود، ممدة على طاولة بائسة المنظر، في لحظة تنفيذ الحكم، ببتر رقبتي، ومن فوقي يضوى سيف اليأس، بدموعي وخيبتي، وفرصي الضائعة!

أغمض عيني . في انتظار الرحمة، أذكر أن أحدهم قد قال: "إن اليأس أحد الراحتين."، واشتاق للراحة جدًا، كامرأة منهكة، استهلكت قوتها . في محاولات عبثية . لإبقاء شراع سفينتها عاليًا وشامخاً، ضد رياح القسوة والجنون. مستسلمة . دون مقاومة . وما عندي طاقة، حتى لنطق الشهادتين!

هل تذكر؟

هل تذكر يوم مررت أنت . دون ترتيب . بساحة إعدامي، قبل موتي بلحظة، والتفت تناديني . وأنت غير منتبه، أني على وشك الفناء . وتطلب مني أن أدلك على طريق ما! كنت . تبدو . تعيساً وتائهاً، بالقدر الذي حرك أمومتي، والتي ما هدهدت طفلاً من قبلك!

فأجَّلْتُ راحتي ويأسي وموتي . قليلاً؛ حتى أساعدك، وبالروح انخطاف . غير مبرر . نحو وجودك الذي هو عنيف . من فرط بساطته، وحزنه . كما الإيمان لا نراه، ولكننا نعيش به!

وتمشينا ساعات نبحث عن الطريق الذي تنشده . أنت . وعرفت أنك تريد الرحيل؛ لأنك حزين جدًا لفقد أحبائك، ولأنفاق العذاب التي تحفرها قسوة الآخرين . كل يوم بانتظام . في هذه الأرض؛ ولأن الرحمة ليست هنا، وعرفتَ . أنت . أني على موعد مع الموت بسيف اليأس، ولا أذكر جيداً . بعد ذلك . ما حدث، ربما لأنه كخطف البرق، لا تصدق يقينك أنك رأيته، من فرط سرعته، ولا أذكر اللحظة التي قررتَ فيها . أنت . ألا ترحل، وتبقى.. تبقى معي، وقررت فيها . أنا . ألا أموت، وأن أحيا.. أحيا لك، ربما في اللحظة التي غنت فيها هي:

(يا حبيبى تعالى.. وكفاية اللى فاتنا.. وهو فاتنا يا حبيب الروح شوية.. يا أغلى من أيامي.. يا أحلى من أحلامي.. خدني لحنانك خدني.. عن الوجود وابعدني.. بعيد بعيد.. أنا وأنت بعيد بعيد.. وحدينا..) وابتعدنا كثيراً، وفي تشابك أناملنا، ما يؤكد أن مازال لدينا فرصة لأن نتنفس بعمق، وفي فراغ أرواحنا نضع أيامنا القادمة، مع مزيج من الأحلام والأمل، وكثير من الحب والطمأنينة لقلب آخر معك، في رحلة . تبدو . عبثية من بعيد، ولكن العشق يجعل لها تفاصيلاً تستحق المحاولة.. تستحق البقاء.

بينما كنت أنا أداوي جراحك، وكنت أنت تشرب دموعي، كان صوتها يتردد صده في الكون الحنون: "صالحت بيك أيامي.. سامحت بيك الزمن.. نَسّتْنِي بيك آلامي.. ونسيت معاك الشجن..."

حبل سُرِّي

إدمانك للقهوة والحزن والفكر؛ يجعل النوم صديق دائم الترحال، لا يستقر كثيراً في جفونك، نومي أنا العميق، أصبح ذكرى بعيدة؛ لأني . وعلى عكس ما اعتدت في عمري . هناك شئ ما يجعلني افتح عيني مفزوعة . تلقائيًا، عندما يهاجمك الأرق؛ ملبية . بشكل غريزي . نداء تتحرك ذبذبته بهدوء في الحبل السُّرِّي، الذي يجمع بيننا في خفاء. في عينيك نظرة طفل استيقظ؛ فأفزعه الظلام! كففت أنت . منذ فترة . عن دهشتك وسؤالي عن كيف استيقظت؟

تستسلم . بدون كلام، وبتنهيدة إجهاد . لمساحة صدري، الذي جاءت قياساته، لتناسب تماماً قياسات: حزنك، وأرقك، وطفولتك المجهدة! تتنفس رائحة جسدي؛ فتنتظم أنفاسك، تسترخي حواسك، كأسلحة تنتزع زنادها في منطقة أمان، بشكل غير متعمد، يتكور جسدك كله في المساحة ما بين قلبي و رحمي، يتلاشى دخان السهر . بعد قليل؛ لأن النوم قد حل علينا، كرداء أبيض دثرنا به الليل . في رحمة! من نافذتنا المفتوحة يرانا القمر . ككيان واحد، نائم في سلام . يلتقط لنا صورة ضوئية، وعندما ينعكس عليها ضوء الشمس صباحًا، يندهش كثيراً، فلقد ظهر في الصورة – تحت ضوء الشمس – ظل لحبلٍ سُرِّي يربط . في وداعة . ما بيني وبينك، ويكاد يُقْسِمُ القمر . مذهولاً . أنه لم يكون موجودًا، وهو يلتقط الصورة، وأنه لا يدري . الآن . ماهية وجودنا الحقيقي، وعما إذا كنا كيانًا انشطر اثنين . بقدر ميلاد، أم نجمين اتحدا في لحظة وجد!

نهد للعشق

أتعجب كيف تختلط البهجة بالشجن . بهذه الكيفية النادرة . في إحساسي بك؟

في هواي السكر الذائب في كأس الدمع، في رقصات الجنة المتداخل رنينيها، مع عزف ناي في يد عاشق وحيد، في ليلة شتاء، تحت شجرة عتيقة العمر واللون، تتلاعب بأوراقها عواصف موسمية المزاج! أبتسم . دون إردة . من فعل البهجة، التي تصدرها لي ذبابات فكرة وجودك في حياتي،

وأبكي؛ لأحزانك وأحزان العالم من حولي وحولك، ولدفق الدمع الذي أسمعه في روحك، وأذني قرب قلبك، أسمع دقاته؛ بحثًا عن نغمة شاردة لمعزوفتي الجديدة، التي أؤلفها إحتفالاً بقدوم الخريف، أتمزق لدمعك الخفي؛ فأُعدِّل وضعك.. وأضع رأسك . أنت . قرب قلبي؛ لتسمع تكتكات الحنان، كدقات التلغراف في محطات القطار . قديمًا . في عصر ما قبل اختراع الهواتف . تك.. تك.. تك . وتفهم إشارتي . دون شفرة . وتستعذب الدقات ورنتها؛ فتهدأ. تشم رائحة الحليب النافر من نهدي؛ فتطمئن، وتصدق أنك لا تحتاج لصراعات الحياة . من أجل البقاء والطعام . فنهر حلبيي يكفيك، ولا رضيع غيرك لي، وتنام مبتسمًا، وألعق . أنا . من شفتيك ما بقى من الدمع المختلط بالحليب، وأتعجب . من جديد . لاختلاط البهجة والشجن في هواك، بهذه الكيفية النادرة، التي تجعل الحليب أشهى . وهو مخلوط بالدمع!

ويك إند

البكاء الذي أدخره لك، حتى يوم العطلة، يكفيني تمامًا، الأسبوع بأكمله ابتلع التعاسة الجامدة، أمارس كل ما عليَّ فعله بإتقان، أطهي الطعام، أصرخ في الصغار، وأنظف البيت.. استقبلك ـ ليلًا ـ بالية؛ لتتناول وجبة عشاءٍ ساخنةٍ، وتنام!

في نهاية الأسبوع أبكي ـ كما يجب أن يكون البكاء، أبكي بكاءً يكفيني، لتحمل أسبوعٍ جديد، من التعاسة المجمدة!

أي الأوقات أنسب؛ لنلتفت لجراحنا النائمة؟ أثناء التسوق، أم أثناء المضاجعة، أم أثناء لحظة مميزة، يُعاد تصويرها ببطء، بطء يسمح بالتقاط التفاصيل، يسمح بربتة على كتف الوجع.

قائمة النواقص الملصقة على الثلاجة.. ينقصها بند (السلام النفسي)!

على الأبواب: ننفض ما علق في أحذيتنا من أتربة، بينما يدخل الألم ـ ببساطة ـ معنا إلى الداخل، ولا ينسى إعادة غلق الباب خلفه.

على الوسادة: لا يغفر لنا الليل، النهارات المثقلة بالضجر والغضب، يُهدينا نومًا مُتْعِبًا؛ مُحَمَّلًا بأحلامٍ، من نوع ضياع كارت الفيزا، هذا النوع الذي نفسره، في الصباح، أنه بسبب نومنا بجوار كراسة المصروفات والفواتير المعلقة!

ونوع آخر من الكوابيس المروعة، لا نتهم بتفسيره، ربما.. لأن هذا ليس الوقت المناسب؛ للالتفات للجراح النائمة.

أحكي ـ سراً ـ لجدران حجرتي، حلمًا لا أستطيع تصنفيه:

لن يخرج أحد ـ من هنا ـ إلا إذا تطابقت الإجابة، مع الإجابة المطلوبة.

اتساع المكان لا يجعلنا مجتمعين، الزجاج بدلًا من الجدران، الزجاج مرايا.. لا صور لنا فيها!

هو يقول: سأطرح السؤال أولاً، وصاحب الإجابة الصحيحة سيخرج من بين الغرف الزجاجية والمرايا المصمتة، إلى أماكن أخرى . ربما ستكون أكثر رحابة ولطفاً.

أسمع سؤاله، ولا أتحمس للإجابة.

كيف أمتلك الحماس لفعل أي شئ، وأنا أعرف أني سأموت في النهاية؟! النهاية.. ربما تكون مكتوبة في بداية السطر التالي!

هو يقول: ربما لا يريد أحد، أن يخرج فعلاً.

زواج: يعني أنهما يتكيفان مع الزجاج.. يعني أنهما يبنيان بيوتاً من الزجاج.. يعني أنهما يألفان الصور المزيفة لبعضهما.

الفتيات ترتدى ملابس بأزهار جميلة، لا يمكن أن تنبت زهرة حقيقة وسط الزجاج.

الإجابة الصحيحة: تنزع جلدي عن جسدي، ولكني سأحتمل!

لن أنزل . بعد اليوم . على سلالم من زجاجٍ لا يعكس خطواتي، ولن أصبر على الألم، إلا بالقدر الذي يكفييني، حتى أعبر من هنا، وأنتهي.

ضفيرة شعر

أنا يتيمة.. سمعت أحدهم في مرة يقول إن اليُتم صفة تسقط عن البالغ.. فهو بعد بلوغه لا يكون يتيمًا.. لا أدري أصل هذه المقولة الشرعية أو النفسية.. ولكن كل ما أعرفه جيدًا.. أني كنت وما زالت حتى الآن يتيمة.

كنت يتيمة منذ العام الأول من عمري منذ وفاة أمي.. وحتى الآن وأنا ناضجة وأم لأربعة أطفال ما زلت يتيمة.. وما زلت أشعر باليتم.. بل إن اليتم هو صفتي الأولى وانتمائي..

عادة ما يقدم الناس أنفسهم أولًا بما ينتمون.. فتجدهم يقولون: أنا مسلم مثلًا أو قبطي.. ثم يضيفون جنسيتهم فيكونون: مسلم مصري أو قبطي أردني أو غيرها.. ويمكن لأي شخص أن يختار انتماءه.. ويكون هو أولًا هذا الانتماء ثم أي شيء آخر.. فقد يتخذ مذهبًا دينيًا.. فيكون انتماؤه الأول.. فيقول: أنا وهابي مثلًا.. ثم أي صفة أخرى.

وأنا يتيمة.. صفتي الأولى.. والتي أشعر بها تمثلني جدًا وتفصح عني هي اليتم.. وهي صفة لم أخترها.. وانتماء لم أبحث عنه.. ولكني وجدت نفسي أحيا في بيت مع أبي وأخوين ذكرين أكبر مني.. وبلا أم.

بالطبع لا أذكر جيدًا سنوات عمري الأولى.. ولكن من المؤكد أني وقتها لم أكن أشعر بأني يتيمة.. شعرت باليتم عندما اكتشفت وجود الأم في الحياة.. وعرفت ذلك من جيراني.. فكل بيت به أب وأم إلا بيتنا!

وعندما سألت أبي: لماذا ليس في بيتنا ماما؟!

فوجئ بالسؤال.. وشرد قليلًا ثم قال لي: إن ماما في السماء.

وعندما سألته: لم لا تعيش معنا وتترك السماء؟

تنهَّد ومسح على شعري وقال: إن ربنا يريد ذلك.

ثم قام ليخفي دموعه..

وعلِقَت بذهني تلك الكلمات وأنا لا أفهمها.. ثم بدأت أشعر باليتم لأسباب هينة جدًا.. ستجد دائمًا اليتيم يشعر بيتمه من أشياء بسيطة جدًا.. ولكنها تظل معه عمره كله تذكِّره بأنه ناقص شيئًا.. ناقص أمًا.. أو أبًا...

وستجد يتيمًا يشعر بيتمه جدًا عندما تطلب المدرّسة حضور الأب في مجلس الآباء.. وستجد يتيمًا يشعر بيتمه لأنه ليس له ماما تحكي له حكاية قبل النوم مثل زميله.. وتجد يتيمًا آخر يبكي إذا سأله أحدهم: بابا بيشتغل إيه يا حبيبي؟.. بل إني في الثانوي، قالت لي صديقة إنها تشعر جدًا بيتمها عندما تجهز لنفسها سندوتشات الصباح ولا تجدها جاهزة مثل جميع الطالبات..

أسباب هينة جدًا.. بسيطة جدًا.. ومختلفة ومتنوعة جدًا.. تجدها في طفولة كل يتيم... أشياء تصنع شيئًا ما مختلفًا في قلبه.. شيئًا لا أدري ما اسمه.. ولا كيف أصفه.. تجعله مختلفًا عن الآخرين.. فتجد في عينيه شيئًا ما يجعله مميزًا..

إن هذا ليس مجرد تخيل.. أقسم أني أستطيع أن أميز أي يتيم من عينيه.. مهما كان محاطًا بالحنان والاهتمام.. كلنا لنا نظرة واحدة.. ولا يتعرف عليها إلا يتيم مثله..

صفة مشتركة تجمعنا نحن أبناء حزب اليتم.. هؤلاء الذين لم يروا أحدًا من أبويهم نهائيًا.. نظرة أو لمعة مميزة.. أستطيع دائمًا أن أعرف منها أن هذا الرفيق لي.. لم يعرف أمه أو أباه..

أما أنا.. فالسبب الهين الذي كان يحرك يتمي وأنا طفلة مختلف.. هين جدًا.. وبسيط جدًا.. وموجع جدًا.. كان السبب هو ضفيرة شعر!!

أبي كان وما زال كل حياتي.. كان يقوم بكل أدوار الأمومة معي بمنتهى الاهتمام.. كان هو الذي يدخل بي إلى الحمام لأستحم.. وهو الذي يجلس بجواري حتى أنتهي من طعامي.. وهو الذي يذاكر لي دروسي بعد ذلك.. ولكنه لم يكن أبدًا يجيد صنع ضفيرة شعري...

كانت دائمًا ضفيرتي غير مضبوطة.. وكثيرًا ما كان ينفلت شعري منها وأصير مهوَّشة الشعر كئيبة المنظر.. وكنت أقف في طابور الصباح أدور بعيني أتفرج على ضفائر زميلاتي.. وأشتهي ضفيرة جميلة مثلهم.. وأشعر بالنقص.. وأبكي كل صباح لأبي وأنا أطالبه بضفيرة غير مكوَّرة ومعرَّجة.. وكان هو يحاول دائمًا.. وكان يفشل دائمًا.. وأخرج بضفيرتي المنبعجة السخيفة وأنا أبكي....

بل إن أبي حتى يتخلص من مشكلة شعري أقنعني بعد ذلك بموضة الشعر القصير.. وقص لي شعري مثل الأولاد.. ولم أحب نفسي أبدًا بالشعر القصير وقتذاك.. ولكنه كان أهون عندي من خروجي بضفيرتي المشوهة.

كلما كبرت أكثر كلما احتجت أمي أكثر.. وكم تخيلت في مواقف معينة كثيرة أن الأمر كان سيكون أجمل بوجود أمي.. وخصوصًا مع آلام الوضع.. كنت وأنا ألد أبنائي دومًا أتذكر أني يتيمة.. وأني أحتاج في هذه اللحظة.. حتى مع كثرة المحيطين بي.. أحتاج أمًّا.. أمًّا فقط..

ولكن أمي كانت في السماء..

أيضًا أتذكر دومًا – وبدون إرادة مني – مسألة يتمي كلما غسلت شعري..

صنعت لنفسي عندما كبرت ضفائر جميلة.. وصنعت لابنتي ضفائر أجمل.. ولكن كنت أحن دومًا أن أجلس بين يدي أم وأترك لها شعري تشده وتضفره.. وأشعر بلمس أصابعها وهي تصنع لي ضفيرتي.. وحتى أحقق ذلك كنت أمرح مع صديقاتي وأطلب منهن أن يصنعن لي ضفيرة.. وكن يصنعن ضفائر جميلة.. ولكن أبدًا ما ارتوى هذا الحنين لدي.. على الرغم من جمال الضفائر؛ فإن هناك شيئًا ناقصًا يجعلني لا أسعد بها..

وذات يوم.. في دعوة كبيرة للغداء صنعتها حماتي في بيتها دعت إليها كل أبنائها.. وبعد الغداء جلس الرجال يلعبون الطاولة.. والصغار يتبادلون نغمات المحمول.. والنساء يثرثرن في اللاشيء.. وكنت مثقلة من الطعام.. وقد هاجمني النعاس؛ فتسللت من الجمع إلى غرفة حماتي أستريح قليلًا.. وعندما فتحت الباب كانت هي في حجرتها ومعها إحدى حفيداتها بين يديها.. وكانت تصنع لها ضفيرة.. فقلت لها إني جئت لأستريح.. فرحبت بي.. وجلست أرقبها وأنا لا أستطيع أن أحيد بعيني عنها.. وعندما انتهت لم أقاوم رغبة طفولية.. رغبة يتيمة بداخلي...

قلت لها بمرح ظاهر وبقلب باكٍ يتيم: ممكن يا طنط تعملي لي ضفيرة أنا كمان؟

ولأنها طيبة جدًا وأنا أحبها جدًا.. ضحكت في مرح وقالت: من عيني يا أم محمد.

بعد دقائق كنت قد غسلت شعري بعجلة ولهفة.. وأصبحت تحت قدميها.. وقد أغلقت باب الحجرة حتى انفرد بها وبإحساسي.. وبدأت هي...

ومن أول لمسة عرفت ما كان ينقصني مع صديقاتي، ومع عاملة الكوافير، ومع أي أحد صنع لي ضفيرة..

كان في لمس أصابعها حنان يتسلل منها إلى خصلات شعري.. ومنها إلى مسام رأسي.. ومنها إلى أعصاب جسدي.. ومنها إلى كياني كله.. فاسترخيت تمامًا.. استرخى كياني كما لم أشعر من قبل.. ونعمت بإحساس لم أحىَ به من قبل.. وتمنيت لو بقيت عمري كله تحت قدميها.. أترك لها شعري تصنع به ضفيرة.. وأترك كياني تربت عليه بحنان وتهدهد طفولة كانت بلا أم..

وعندما انتهت حماتي من الضفيرة.. كنت أنا قد نمت..

مجانا

عربة أجرة ستقلنا . جميعًا . إلى نقطة منتصف الكون تمامًا؛ لنفترق بعد ذلك، ويذهب كلّ منا إلى طريقه.

عقب نجاتي من انفجار في محطة مترو الأنفاق،

(النجاة التى حدثت؛ لأنى ركضت بشدة وبسرعة، ووصلت إلى باب الخروج، قبل لحظة من الانفجار)

عرفتني أختي على تلك العربات الأجرة، كانت قد انتهت من نوبة لومي لتعريضي حياتى للخطر، وركوبي المترو، وأنا أعرف عن انفجاره، وذلك فقط من أجل قطعة حلوى، وتفاحة مجانية!

كانت تردد . بهستريا: "الأمر لم يكن يستحق المغامرة!"،

نظرت إليها . صامتة . لم تكن تفهم أن الأشياء المجانية . هي فقط . المتاح لي، بعدما اشتريت بنقودي . كلها . براحًا كبيراً؛ يلزمني للتنفس، وصمتًا عميقًا؛ يلزمني حتى أنام نومًا ملهمًا.

سأشتري . أنا . الحلوى لك، قالت . لي، فابتسمتُ!

لا أريد! يمكنني تدبر أمري.. قلت لها.

حكيت لها.. كيف استطعت الأسبوع الماضي أن أحصل على قطع باتيه إضافية، من البوفيه المفتوح، ضبطتنى الفتاة المسؤولة، وكدت أتورط في شجار معها، ولكنها كانت تكلم نفسها، وقالت:

"ارحموني.. إنني أعيش بالمهدئات!"، ذكرت لها اسم مهدئ، فلمعت عينها، وردت: "إنه هو!"، وشكت لي من الغثيان الذي يسببه، وأنها تفكر أن تنتقل إلى دار الأيتام، وتترك أباها البغيض؛ حتى تتوقف عن تناول المهدئ. وصفت لها وصفة طبيعية، أصبحت صديقتي، وأعطتنى أربع قطع باتيه بالجنبة.

لن تستطيعي أن تعيشي العمر كله على التسول... قالت أختي . بحنق.

حاولت أن أشرح لها أن تعبئة صوت العصافير في أكياس وبيعه، ليس تسولا، إنه عمل، وأنا أستمتع به.

لوَّحت بيدها . في يأس، أن لافائدة مني! تركتني، وذهبت لعربة الأجرة، وقفتُ . أنا . أفكر: هل أريد أن أذهب . حقًا . إلى نقطة منتصف الكون، أم أبقى هنا، مستمتعة بوضع خدي الملتهب على أرضية الحمام الباردة؟!

رفاهية الحزن

الدموع لا تسدد الفواتير، ولا تأتى بالطعام!

أتجاهل أني حزينة، إلى حد الزهد في كل شئ، وأذهب إلى عملي. أجلس خلف الفتحة المستديرة الضيقة؛ أبيع تذاكر العرض القادم، كل شئ ممل ـ مثل كل يوم ـ الشمس ، أكياس الفشار، صيحات الشباب، ضحكات البنات، نظرة العين المتواطئة، والورقة النقدية من شاب؛ حتى يختار المكان المناسب له ولرفيقته ـ التي تنظر في الاتجاه الآخر، و تتظاهر أنها لا تلاحظ ما ينويه!

أدير الردايو الصغير بجوارى.. سميرة سعيدة.. تقول:

"ونصبح ذكريات.. مجرد ذكريات.."

ليس لي ذكريات إلا هو.. هو السر والفرح والجرح.. وحكاية العمر الوحيدة!

الساعة تمر، ولا تمر.. يجب أن أظل هكذا 10 ساعات، الروتين في حد ذاته عبء، يصبح ألمًا مع الحزن، و يتجسم معه فكرة ان الحياة عقاب على ذنب لا ندريه.

(والقلب الحزين... يدوب من الأنين

حبيبي.. ضحكتنا بكاء

قسمتنا كده

تهدينا السنين.. أيام الهموم

ونموت عطشانين)

أبتسم لزبون، وأشكره على بقشيش، وأنا أفكر أني لا أحتاج إلا الموت، لماذا أقتل جنيني وأبقى؟! تتجمع دموعٌ متحجرةٌ موجعةٌ جدًا في قلبي، وأنا أذكره، ابني الذي قتلته في شهره الرابع، تُرى كيف كان سيكون شكله؟

هل كان ستكون له شفتاك القلقة، والتي كانت تزداد عصبية على شفتاي، له عيوني الخضراء، والتي ما عرفت إلا الدموع!

لم تمر إلا نصف ساعة، أتابع عقارب الساعة، وأزفر في سأم.
في الشهور الأخيرة، لم أعد أشعر إلا بالسأم.
غطست الأحزان في عمق روحي، مثل قتيل مربوط بحجر، وطفت على السطح . فقط . رغوة السأم الباردة.

لاشئ له طعم!
لا أنتظر شيئًا على الإطلاق.
لا شئ بعدما نزلت دماءٌ على فخدي، ومعها جنيني وإحساسى بإنسانيتي.

تزوجنا سرًا؛ لأنك فقير؛ ولأني أفقر منك.
ولأن الحب جعل في لحظة كل شي ممكنًا، وجعل اليوم أقل ألمًا، وأكثر متعة . حتى مع الحاجة، والمواصلات، وطوابير رغيف العيش، والمياه؛ التي تنقطع اليوم بأكمله، وتأتى فقط قبل الفجر.
لم نكن ندري أن حبنا السري، وزواجنا . الذي يقول عنه شيوخ الفضائيات؛ إنه زنا . سيجعلنا . يومًا . نقف هذ الموقف الرهيب.
اليوم الذي لم نستطع بعده . أبدًا . أن ننظر في عين بعضنا البعض!
كيف نفعل هذا، وفي المساحة بيننا قسوتنا.. وجنين مقتول!
بحثنا عن الحب؛ فوجدنه مذبوحًا على الرصيف، وتضوي فوقه إعلانات عن مزيل العرق.. وأقراص القدرة الجنسية!
تركنه هناك، وكلٌ منًا ذهب في اتجاه.

أكاد أبكي، وأنا أكتشف أنه لم يمر من الوقت.. إلا ربع ساعة أخرى.
أريد . بشدة . البقاء وحيدة.. في غرفة مغلقة.
رفاهية الحزن.. ليست لنا!
فالدموع لا تسدد الفواتير.. ولا تأتي بالطعام!
ستمر الساعات بأي حال.. وسأخرج من خلف فتحة شباك السينما.. وأنا واهنة الأعصاب أكتر من اليوم السابق.
سأمر . في طريقي إلى البيت . على محطة البنزين؛ التي تعمل فيها.
وأقف؛ لأنظر إليك . من بعيد، وأتأكد أنك مثلي.. جثة تعمل من أجل البقاء!

لا أبكي.

أعود إلى البيت.. وأجد أمي؛ التي تصرخ في إخوتي الصغار - كعادتها - ليلاً ونهارًا، منذ دخل أبي السجن؛ لأنه اشترى - لنا - ثلاجة ودش، بإيصالات أمانة، ثم عجز عن السداد.

أنهي كل شئ مطلوبٌ مني، كالإنسان الآلي، وبأعصاب مهترئة، مثل الوردة القديمة بين ضفتي كتاب.

وأحبس نفسي في الحمام؛ لأشرب علبة البيرة، التي اقتطع ثمنها - بصعوبة - من مالي، الذي تأخذه أمي كله.

أحتسي البيرة على مقعد الحمام.

أفكر فيك.

وأبكي، وأنا أدندن: ونموت عطشانين!

خالتي فوقية

اليوم ماتت خالتي فوقية، اندهشت . بشدة . وأمي تبلغني بالهاتف وهي تبكي، على الرغم من أن الموت حدث لابد منه لكل حي، إلا أن هناك بشر لا تملك إلا أن تندهش عندما يموتون، ومنهم الشباب بالطبع؛ لأنها تكون فاجعة وعلى غفلة، وكما كان يقول أبي . رحمه الله: "ربنا اكفنا شر الغفلة!"، ولكن خالتي فوقية لم تكن شابة، كانت عجوز في السابعة والسبعين من عمرها، ربما لأنها تنتمي إلى الصنف الآخر من البشر، الصنف الذي تتوقع أن تسمع . دائمًا . خبرًا عنه، ولكن لا يمر بخيالك . أبدًا . أن الخبر سيكون موته! شعرت بذلك يوم ماتت سعاد حسنى، ويوم ماتت الأميرة "ديانا". ميتة خالتي فوقية، لم تكن جريمة، ولم تثر ضجة، مثل ميتة سعاد حسني وديانا، ماتت . بهدوء . في فراشها، ماتت وهي نائمة، ماتت برفق ولين، لا يتناسب مع خشونة وضجيج عمرها،

ربما أول مفارقات عرفتها عن خالتي فوقية . وأنا طفلة . أنها تكبر أمي بكثير، تكبرها بما يزيد على خمسة وعشرين عامًا، ولم أستطع أن أفهم . أبدًا . إلا بعدما كبرت، كيف أن خالتي فوقية، ليست خالتي، بل هي ابنة أخت أمي، أي أن أمي هي التي خالتها، أمي كانت ابنة صغرى لجدي . قبل موته . من زوجة ثانية، تزوجها في آخر عمره، بعدما قضى أربعين عامًا مع زوجته الأولى، وأنجب منها البنين والبنات، وخالتي فوقية هي ابنة أكبر بناته . من الزوجة الأولى؛ لذا هي أكبر من خالتها، التي هي أمي، بأكثر من خمسة وعشرين عامًا!

كنت أرها مختلفة عن كل نساء العائلة، كانت أجملهن . بشكل ملحوظ . "خواجاية"، على حد تعبير نساء العائلة، بيضاء طويلة، بعيون خضراء ساحرة تزوجت خالتي فوقية، وهي يتيمة الأم، في الرابعة عشرة من عمرها، وطُلِّقَتْ . أيضًا . وهي في الرابعة عشرة من عمرها! لم تكمل مع زوجها عامًا، كان رجلا صعيديًا، يكبرها بعشرين عامًا، وطلقها . على حسب الحكايات المتداولة في العائلة؛ لأنها أخرجت لسانها؛ لتغيظ أمه، في حين أن فوقية، قالت: "إنها كانت . فقط . تلعق الجيلاتي بلسانها!" الحكاية كنت أسمعها . في طفولتي وشبابي . كنكتة قديمة في العائلة؛ لأنه كان قد مر عليها زمن

طويل، لكن وقتها - في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين - كانت مأساة أن تطلق امرأة، وتُطْرَد، وتعود إلى بيت أهلها، كما كان للمأساة وجه آخر، بقى - مثل وشم العذاب الأبدي - في حياة خالتي فوقية، فلقد انتظر الزوج الصعيدي الظالم، أن تضع فوقية حملها - الذي حملت فيه من ليلة الدخلة، وأخذ الطفل، وطردها، ورفض - نهائيًا - أن تراه،

حاول أبوها - عندما عادت له - أن يصلح الأمور، ولكن العناد كان عظيمًا من قبل الزوج، ثم انقلب الأمر إلى مسألة كبرياء بين العائلتين.

وعادت فوقية - طفلة في جسد امرأة - مطلقة فقدت طفلها، وتحمل عارًا - لا تفهمه - لأسرتها.

أصيبت فوقية بلوثة ما - في ذلك الوقت؛ بسبب الوليد الذي لم تراه، كانت تحبس نفسها في حجرتها بالشهور، لا ترى أحدًا، وتأكل القليل، وكانت شهور أخرى تخرج؛ لتتشاجر - بجنون لا حدود له - وتكسر كل ما في الشقة على رأس أبيها وأخواتها، ولا تهدأ - حتى عندما يضربونه ضربًا مبرحًا - وكانوا أحيانًا يتعبون من صراخها، فيتركونها حتى تهدأ بمفردها، وتعود لتحبس نفسها بالشهور - من جديد - لا يسمع لها أحدٌ صوتًا!

بقيت هكذا لعدة أعوام، ثم قررت - فجأة، وبدون أن يعرف أحد من أين أتت لها تلك المعلومة - قررت أن تدخل معهد "سينجر"، وهو معهد يعلم الخياطة - افتتح حديثًا - وكانت خالتي فوقية من أوائل الطالبات اللاتي التحقن به - في أول الستينات، وتركتها العائلة؛ علها تهدأ قليلاً!

ونجحت خالتي فوقية على مدار الأعوام التالية لذلك، نجاحًا لا نظير له في مجال الخياطة، وتنفيذ التصمميات، بل يقال إن كثيرًا من نجمات السينما - وقتها - كانوا زبائن عندها، كلما رأيت فيلم "أبيض وأسود"، أفكر أنه ربما خالتي فوقية هنا أوهناك خلف فستان للممثلة دون أن أعرف!

حاولت خالتي فوقية - على مدار عمرها - أن تسترد الوليد، الذي لم تراه، أو أن تراه - حتى ولو من بعيد - لكن الزوج كان يرفض بقسوة، لا مبرر لها، حتى أنه ضرب بشدة مرسالًا، أرسلته خالتي فوقية له؛ ليعرض عليه مالاً مقابل أن يعطيها الولد.

كسبت خالتي فوقية أموالاً طائلة من الخياطة، وكانت تستثمرها في: شراء الأراضي، وبناء العمارات؛ مما ضاعف ثروتها مئات المرات . مع بداية أزمة الإسكان.

كانت كريمة جدًا مع أخواتها الصغار . خصوصًا . بعد وفاة أبيها، حتى كبروا وتزوجوا، وكانوا ميسورين . من الأساس، ولكن دخل خالتي فوقية؛ جعلهم أغنياء جدًا، حتى أنها كانت تدعوهم . هم . وكل أفراد العائلة؛ للذهاب إلى حفلات "أم كلثوم"، وكان ذلك . وقتها . من شيم الأثرياء جدًا؛ لارتفاع سعر التذاكر.

بقى جنون خالتي فوقية مرادفًا لها . على الرغم من نجاحها وثرائها، فكانت تستيقظ . في بعض الأيام . تخرج وتأخذ أي أتوبيس، من أول الخط لآخره، وتتطلع من النافذة؛ تبحث عن سرداق عزاء، وعندما تجده، تنزل، وتدخل عند الحريم، وتظل تبكي، و"تولول" و"تِعَدِّد"، وتصرخ حتى يضيع صوتها، ثم تعود إلى بيتها، وتنام بهدوء.

ظلت على هذه العادة سنين، وخصوصًا، بعد أن مات . بشكل درامي . ثلاثة من أخواتها الصغار الذكور، وهم في أوائل الثلاثينات من العمر، بمرض غريب، كان يسبب لهم سكتة قلبية مفاجئة، وعلى حد تعبير خالتي فوقية "إنها شربت نارهم جميعًا، على حياة عينها!" وهم صغارها التي ساعدت في تربيتهم بدون أم، ورحمها القدر . وقتها . وأرسل لها ابنها، رأته أمامها . فجأة . شابًا في العشرينات من عمره، وذلك بعد موت أبيه، وكان لقاءً مذهلاً، لم يستطع أحد نقل تفاصيله بدقة،

وهبت خالتي فوقية الكثير من أموالها للابن العائد، وتكفلت بتربية أبناء إخوتها المتوفين . جميعهم. وكانت تساعد كل من احتاج لها . في العائلة . بكرم أصيل،

ومع كل هذا الكرم والرقة، كان لخالتي فوقية وجه آخر، كنت أحتار فيه. فكانت . مثلاً . تحرض واحدًا من أبناء إخوتها المتوفين، أن يضرب أمه الأرملة؛ لأنها فكرت أن تقبل عريسًا تقدم لها! ووقفت تراقب الولد، وهو يضرب أمه بعنف، وفي عينيها تشفٍ غريب، ومواقف أخرى غريبة، كانت تظهر فيها قسوة غير متوقعة، كل تلك الأحداث والمواقف، جعلتني أتقبل خبر وفاتها بتعجب، فمن مثلها، من الممكن أن أسمع عنها كل شئ، كل شئ.. إلا أن تموت خالتي فوقية!

عروسة تكتب الرسائل

الرسالة الاولى

إن اختلافنا، بشأن نوع القماش الذي سنستخدمه في صنع الخيمة . التي سنتزوج بها . أمر يبدو صحي لعلاقتنا. تأكيدك . العصبي . على أن الحرير لا يصلح لصنع خيمة، وإصراري أنه يمكننا أن نطعِّمه بأشياء؛ تكسبه قوة؛ فيصلح، هو أول نزاع زوجي بيننا. التنهيدة المرهقة . التي تنهي بها الحوار . ثم تعقبها، بقولك: اصنعي ما تريدين! تصيبني بالحيرة. أرغب في الحرير، ليس من باب العناد أو فرض رأي غير صحيح، ولكني أريد مكانًا جميلاً لنا، حتى لو كان خيمة سنضعها . في شارع هادئ . ليلاً، وسنرفعها نهاراً.

إنها ستكون بيتي . حتى لو كان محمولًا . ولمدة ساعات! لا يعنيني كثيراً أنه لن يمكنني أن أمارس هذه الأفعال المحببة لعروسة جديدة؛ من دعوة صديقتها وقريبتها؛ لروية الأثاث اللامع، ودولاب الكؤوس والأكواب . والذي يئن من مئات الألوان والأشكال والأحجام، لزجاج كثير – أرى فيه إشعاع عيونهن المدققة، لن أستطيع أن أفتح دولاب ملابسي؛ ليروا عدد ما اشتريت من ملابس لإثارتك. أبتسم وأنا أتذكر أني ما اشتريت من ملابس، إلا رداءً أزرق؛ يكشف عنقي، والمساحة أسفله بعمق. أعرف أنه يستهويك . أدرك أنها أجمل مناطق أنوثتي، أنوثتي، التي أعرف أنها تثيرك، حتى وأنا أرتدي بدلة عسكرية!

أقاوم؛ لأحتفظ بفرحة قرب زفافي عليك، والتي سيكون بدون كوشة، ضد أقاويل كثيرة، تزحف لتدمرها، ضد حسرة أمي وحديثها عن أني كسرت فرحتها، ضد أطراف سخرية وشماتة، وبعض إشفاق من آخرين، ضد همس . كالفحيح . يدور حول جسدي، ويريك مساحات الطاقة من حولي.

أبدو مجنونة . للجميع، وأبدو . لنفسي . صحيحة الذوق والمزاج، في عالم فاسد الإحساس، أني تنازلت عن كراكيب الفرحة؛ من أجل لؤلؤة الفرحة، ألا تعتبر هذه مقايضة في منتهى الحكمة؟!

استئناسي بقربك وصوت أنفاسك، وجودك الثرى بالإحساس، الذي يملأ فراغات عمري وروحي، اتكاء مخاوفي على حدود أمانك، حنانك الذي يغمر الأحزان والوحدة، وغربة الألم، وينبت زهور الشغف، كل هذا، هو لؤلؤة الفرحة!

الأيام التي اغتنمها، وأحافظ عليها من أن تضيع، ونحن ننتظر اكتمال كراكيب الفرحة، والتي سنكملها . فيما بعد . سويًا، دون أن تضيع أعمارنا القصيرة، في دوامة البعاد والانتظار. أود . الآن، فقط . أن أتخلص من الارتباك أمام جمل من نوعية؛ أني أستحق أحسن من ذلك، وأنه لا ينقصنني يد أو رِجْل، حتى لا أكون عروسة كاملة . بكراكيبها الجميلة . تنقصني أنت، أنت فقط، وسأكتمل.

ألا يستحق اكتمال كياني، التضحية . مؤقتًا . ببعض رفاهيات الوجود؟ أثق أن طعم الفراولة . في قبلتك . كافٍ لإثارة البهجة في قلب ألف امرأة، وأظنني قادرة على الاحتفاظ بنشوة وجودي في أحضانك، ضد كل عذابات عروسة بدون فرح.

الرسالة الثانية

تعبت مني جدًا عاملة الكوافير، التي تزيني لليلتنا الأولى، كلما اقترحت هي شيئًا، رفضته وطلبت عكسه، تنهدت . في عصبية . وقالت: إن كل العرائس تفعلن هذا! صمتُ وأنا أنظر . لنفسي . في المرآة الكبيرة أمامي، لست عروسًا عادية، كما أنت لست بالرجل العادي؛ لأني أعرفك جيدًا، كنت أقوم بذلك، إنها تصر على وضع عشرات الدبابيس ومشابك الشعر – أعرف أنك ملول إلى حد الكسل – وأن انتزاع كل هذا؛ سيثير ضيقك لأقصى حد، تريد . هي . أن ترسم على بطني، وبين نهدي نقوش حناء، وأنا أتصور جسدي أجمل بلونه الصافي المشع . بعد الحمام المغربي والتدليك . أرى نفسي أمامك شهية طازجة، بدون ألوان صناعية، أتخيل مطر قبلاتك لجسدي، وكيف سيصنع أنهارًا وآبارًا صافية النبع، هنا وهناك. إن الأمر لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد، أذكر جيدًا عندما قلت لي إني أكون في أجمل حالاتي عند الخروج صباحًا، ووجهي نظيف مغسول . فقط . بضوء الشمس، وقتها تذكرت تلك الممثلة – والتي هي من أجمل جميلات السينما العالمية – عندما قالت: إنها لا تحب ارتداء المجوهرات، وأن المجوهرات فائدتها البريق الذي يخطف البصر، ويخفي قصور الجمال، وأضافت . في ثقة . أن جمالها لا يحتاج إلى بريق صناعي!

هل تعرف شيئًا؟ منذ أيام كنت أعيد ترتيب ألبوم صوري، عندما لاحظت شيئًا، فهناك اختلاف خفي في صور ما بعد حبنا، اختلاف أكاد ألمسه في لمعة العينين وفي صفاء بشرتي. الحب يجعلنا أجمل، أثق . في هذا . تمامًا، الحب هو تمام البريق، "بحبك"؛ التي أقولها وأتلقاها منك، تضع لي أحمر شفاه، تكحلني بالصحة والمرح، وتصبغ الرمش بالفرح، أعجبني جدًا لون طلاء الأظافر الذي استَخْدَمَتْهُ معي؛ فاشتريته، أحمر داكن، بدا مثيرًا على كفي، وكأنه قلب الوردات الحمراء، التي تكلل الأشجار في ربيع بلادنا، سأزيله فور وصولنا البيت؛ حتى أتوضأ، ونصلي . معنا . صلاة شكر لله – كما اتفقنا أن يكون هذا، هو طقسنا الأول في ليلتنا الأولى- والتي ستسحب ورائها عمرًا هناء، سأعيشه في عيونك . بإذن الله!

الرسالة الثالثة

هل رائحة الجوافة – التي انتشرت فجأة، وبدون مصدر معلوم، وامتلأت بها أرواح الجميع – إشارة على أن هناك ملائكة خفية، تشاركنا حفلة الحنة، ربما . أيضًا . كانت ترقص معنا وبيننا، وتغمز لبعضها خلسة في أغنية "غمازات"، أعرف أنها نزلت في أناقة وخفة؛ لأنها تقدس . مثلي . الفرحة؛ ولتلتقط صورًا للضحك البناتي، والرقص البناتي، والحب البناتي، أودع الله حلاوة و طراوة في كل ما هو بناتي، الأرض تضحك من خطواتهم الراقصة بحرفة، ووقع التصفيق العالي المنغم الراقص على دمائي، وصداه في رأسي له تأثير مبهج، يشبه الحبوب المخدرة، والقرصة الحنونة . منهن . في ركبتي؛ حتى تلحقن بي في جمعتي . تجعلني أضحك بهستريا، تصادف أن تعبنا من الرقص، ووقفن نتابع . من الشرفة . الرجال وهم يمارسون طقوس فرحهم، في اللحظة التي كانوا يحملونك ويقذفونك في الهواء . عدة مرات، شهقت وقفز قلبي معك للأعلى؛ خوفًا عليك، وبرغم غرابة وضعك، التقطت عيناك . من وسط الجمع . عيناي الملهوفة عليك، وعلى غير عادة خجلك، رميت لي قُبْلَةً في الهواء، واشتعلت الأيادي أرضًا، والنجوم في السماء بالتصفيق الحاد، تحول وجهي . خجلاً . إلى حبة فراولة طازجة، وابتسمت، فَصَفَّرَ القمر منتشيًا في السماء، وانطلقت شهبٌ؛ لتنير الوجود حولنا

يحدث فى السابعة صباحا

العجوز التي قايضتنى على غرفة أنام فيها مقابل طبق " كوسة بالشاميل"، قالت: الكلاب هنا غير مؤذية.. لا تخافي.
ومع ذلك بقيت أرى كلابًا . بأنيابٍ، تنبح بشدة باتجاهي.

منحتني العجوز عملاً . ظننته بسيطًا، قالت: فقط أمشي داخل الحلم، بشكل مستقيم لمدة ساعة واحدة، كنت وقتها أعاني من: إجهاد عيني.. نزيف شفتاي.. فرار أنفاسي.. وتخلل في ركبتاي.. ومع ذلك مشيت!

عرفت . مع الدقائق الخمسة عشر الأولى من الساعة . أن الدهر أفسد عندي أكثر مما كنت أظن، فقد قابلت داخل الحلم.. سحابًا صافيًا، وعصافير باللونين الأبيض والرمادي.. ونظر لي هدهد . بأناقة . طويلًا قبل أن يطير بعيدًا، ومع ذلك لم أشعر بشئ.

حتى البكاء أصبح صعب المنال، قاومت إغواء القفز في البالوعات المفتوحة . على طول الطريق، أعرف أن في أعماقها جنة من الأطفال، وأمهات ثكالى لم تحتملن الألم . يومًا؛ فقفزن وراء أولادهن! الساعة لم تنتهِ . بعد، والملل يكاد ينهي كل شئ.

الآن موعد المدارس، الأطفال تجري دون سبب، من صياحتهم التقطت أسماء، قابلت أحمد زكريا، ياسين، وكثيرين غيرهما، وقابلت . أيضًا . الكلب "رعد" الأسود، ولم أخف؛ لأن صديق أحمد زكريا، الطفل ذو الشعر الفاحم السواد ابتسم لي.. بادلته الابتسام . سريعًا، وأكملت السير.
بنت . من خلفي . تردد ما حفظته
(we مقابلها our self
نحن مقابلها إحنا)

الساعة انتهت.. وعُدْتُ إلى غرفتي،أفرغ من أمعائي نصًا سرياليًا؛ حتى أستطيع النوم.. لأبدأ العمل من جديد غدا.. ربما أصلح تكرار المشى، داخل الحلم، ما أفسده الدهر عندي!

حكي الصمت

لأني صبار بأشواك ناعمة ـ غير قادرة على الإيذاء ـ تليق بي الحياة في: الصحاري، والمقابر، وفي شرفات الأشخاص المتوحدين؛ الذين لا يجيدون إلا احتساء الشاي، ومضغ الأحزان، وتأمل زهرة الصبار.

يتخيلون قصصًا لحياتي ـ أنا ـ كزهرة تعيش بلا ماء، يبتكرون الحكايا عني، فيتخيل بعضهم أني كنت في الأصل وردة حمراء بين ضفتي كتاب عذراء ساهمة، فهم يعرفون أن الفقد المتكرر والجرح النازف، تتحول معهما الزهور إلى صبار! ويعتقد آخر أني ـ في الأصل ـ كنت نبتة بجوار الحفرة التي وضع فيها قابيل أخاه هابيل – بعد أن تعلم ذلك من الغراب – ومؤنسًا ـ بذلك ـ أجيالًا ضائعة ملوثة، وقتلة مستورين في ظل زهرة الصبار.

ويؤكد آخر أني من مكونات المادة، التي تحللت إليها "جولييت".. فـ"جولييت" العصر الحديث.. لا تستيقظ من نومها لتعرف أن حبيبها انتحر من أجلها، بل تموت في صمت، وتتحول إلى صبار! قصة حياتي.. غير ما يتوهمون.. ويفكرون.. ويعتقدون.. أنه الحقيقة.. والحقيقة ما هي إلا أكذوبة قديمة لو يعرفون!

الصبار لا يفقد صبره.. الصبار لا يشكو.. وإن بكى أصبح شيئًا آخر ليس بصبار؛ فيفقد ـ بذلك ـ حقه في البقاء على قبور أحبائه مؤنسًا بأرواحهم، ولا ينفع أن يعيش في البيوت الدافئة؛ لأن سكانها ـ في الغالب ـ لا يستسيغون زهرة الصبار. يجب عليه أن يبقى متماسكًا صامتًا صابرًا؛ حتى يستطيع البقاء تحت الشمس، كما يليق بزهرة يرسمونها على القلوب الجريحة؛ طلبًا للصبر والسلوان.

بني غامق

(1)

الحلمات تطاردني..

....

(2)

في محاضرة التذوق الفني.. عرض المدرب لوحة كبيرة لتمثال لمايكل أنجلو.. التمثال لجسد امرأة.. نهديها بلا حلمة.. أشار المدرب إلى أن الحلمة تهاوت بفعل الزمن. التمثال عمره يزيد على ثلاثمائة عام.. أصل النهد كان له حلمة!

....

(3)

سأقابل علاء.. اليوم

....

(4)

في المترو.. أكملت رواية (تحت أقدام الأمهات)، في مشهد مروع . تنهار البطلة، وهى ترى ابنها يرضع من ثدي عمته.. بعد أن حرمته . هي . لبنها، ودخلت في عناد معه؛ ليرضع اللبن الصناعي. تنهار.. وتتراجع عن موقفها، وتصر أن يرجع اللبن إلى صدرها، الذي جف، تقوم بكل الوصفات المعروفة؛ ليعود اللبن، تحاول إرضاع الطفل، ينزل من حلمتها دمٌ، يشربه الطفل، ثم يتقيأ، تنام يائسة وفي حضنها ابنها، تستيقظ على بلل عنيف، وقد تدفق اللبن غزيرا من حلمتها، ويبللها بشدة، هي والطفل.

....

(5)

أخذني علاء إلى مهرجان أفلام إيطالية، المشهد به رجل يداعب جسد حبيبتها، حلمة ثدي الممثلة منتصبة تمامًا، في نقاش مع علاء . بعد الفيلم، قلت له: إنها كانت مستثارة فعلا، والدليل . على ذلك . انتصاب حلمتيها!

أجابني، بأن ذلك غير مؤكد؛ لأنهم - عادة - يقومون بأشياء تضمن انتصاب الحلمة - قبل تصوير المشهد.

وعندما سألته - متعجبة: ما الذي يجعل حلمة امرأة تنتصب، غير الجنس؟!

أجاب: إنهم يضعون ثلجًا - مثلًا - على نهديها؛ فتنتصب الحلمة.

....

(6)

لم أنم مع علاء.. تلك الليلة.

....

(7)

وضعت إحدى صديقاتي صورة مبتكرة - على صفحتها الشخصية - بها امرأة تظهر ثديها وحلمتها على شكل قلب.

عندما أمعنت نظري فيها، فهمت أنها رَسَمَتْ بقلم بني غامق؛ حتى صنعت من شكل الحلمة قلبًا.

....

(8)

علاء يرضع - مني - بلا لبن.. يرضع عسلًا، ويذهب للجنة.. ويعود منها.. علاء لن يجد - يومًا - حلمتي، ستسقط.. ستسقط بمشرط جراح، وليس بفعل الزمن - مثل تمثال مايكل أنجلو، أعرف ذلك القدر - يقينا، ولكن لا أستطيع أن أسبق الزمن - مثلما فعلت "أنجلينا جولي" مع ثدييها.

عزلة

مدخل

طن من الساعات الفارغة، أزيزالأجهزة: ثلاجة، مرواحة، وكمبيوتر،

هو ـ فقط ـ ما يقطع محيط الصمت اللانهائي،

مشاريع كثيرة لصنع أوهام يقعدها ألم في الصدر، ورغبة ـ فقط ـ في نغمة حزينة أعرفها جيدًا،

تذكرني بأن لست وحدك في الوجع، حتى وإن كنت وحيدًا بين جدران آمنة ـ حد السأم ـ

بداية ونهاية

تحكي حكايات عن انطفاء الحواس، عن الكف عن الوجود، عن الغياب.

أتذكرها ـ بالأمس ـ وهي باسمة أو باكية، تحتفي بالروائح، بالرقص، بالأمومة.

أتماها معها ساعات، ثم أتركها وأذهب

أجلس بين الجدران، أحاول أن أتبين حقيقة إحساسي. لماذا اشكو؟ وماذا أفتقد؟

ألم أتطلع ـ طويلاً ـ إلى الجدران الآمنة، بعيدًا عن قسوة البشر؟ ماذا هناك ـ الآن ـ والصمت لا يقطعه حولي، إلا أنفاسي؟

أين الحياة؟

أردد سؤالها، الذي أنهت به فنجان قهوتها، في اللحظة التي صمتت بعدها ـ تمامًا.

ثقل اللحظة أو خفتها، هو ما يعانني الآن. أحاول أن انجو بها من ظل ما كان، وهلع ما سيكون.

(كان في فراشة منقطة.. لابسة جونلة مشجرة)

الطعام الجيد يساعد اللحظة أن تكتمل،

والموسيقى تمنحها شغف الاتصال بعوالم أخرى؛

لذا أعرف منها أن ما أفتقده، هو العوالم الأخرى.

ما الذي فاتني؟ أنبش بالسؤال، أستنطق الوجود، الإجابة، ثم أرتاح في حكاية جديدة،

حكايتها عن انطفاء الحواس، عن الكف عن الوجود، عن الغياب. تخلع قلبي، تنفي عن بيتي صفة القبور، لست مثلها، فالروائح مازالت تنبعث من هنا، مازال هناك كيس قمامة عملاق أمام الباب، الفرن به ـ دائمًا ـ صينية ما، والمذياع لا يكف.

المصلحة

كان يجب أن يكون معنا ذكرٌ؛ حتى نأخذ الإرث من عمي، أنا وهي.. أو هي وأنا.. إننا كائنان يتصلان ببعضهما بشكل روحي لا يمكن فضه..

إنها أختي الصغرى، التي أهدهد فيها - منذ مولدها - على الرغم من أني أكبرها بخمس سنوات فقط.. بشكل غريزى فهمنا أن اتحادنا، هو الذي يحمينا، وقبل أن ندرك أننا نحتاج إلى الحماية، كنا - بالطبع - قد أدركنا كم نحن ضعفاء..

ولكن أنا أستطعت أن أفهم - سريعًا - أن كل ما نحتاج إليه، هو ذكر؛ ليكملنا ونصبح به قوة حقيقة.. فركزت هدفي في الحصول على زوج مناسب لخطتي؛ وهى أخذ حقي أنا واختي، من أعمامنا.. وطلبت منها - هي الأخرى - أن تفعل ذلك.. علمتها كثيرًا.. ولكنها بقت - كما هي - تافهة.. هشة.. تفكر في الرجال من منطلق الحب فقط.. هي كانت تريد الحب، وأنا كنت أرى أن الحب سيُضْعِفُنا أكثر.. نريد رجالًا تكون تحت سيطرتنا؛ لنحتمي بهم.. ولكن هشاشتها وسذاجتها، كنتا تُوقِعَان به - مرة تلو الأخرى - في رجال كاذبين؛ يَعِدُونها بالكثير، ويسرقون بعض قبلات، ثم يتركونها حزينة حد الموت، تبحث عن الأسباب التي تجعل الرجال يهجرونها، رغم أنها تجيد التقبيل، وتستمتع به وتمتعهم - أيضًا..

لماذا يهربون يا أختي؟ سؤالها الذي يدق في رأسي - عقب كل فرار لرجل!

كنت أداوي جرحها بسأم.. حتى تسترد قوتها، وغالبًا ما يكون ذلك بواسطة رجلٍ جديد يقبلها! أريدها متماسكة قدر الإمكان.. لعلها تجد الرجل الذي يحمينا.. ولكني كنت أشك - دائمًا - أنها ستفعلها، وفعلتها أنا.. فعلتها طبقا للمواصفات المطلوبة.. هو كان كما أريد تمامًا.

يمشي ورائي بالساعات في صمت دون أن ينطق.. أو حتى يغازلني - ولو بكلمة واحدة.. معروف هو بصمته الطويل طوال عمره.. ولا أحد يعرف عنه شيئًا، إلا أنه طيب ومستقيم.. تَحمَّل أمه العاجزة بصبر، وراعها بما يرضيها؛ حتى سلَّمت الأمانة، على الرغم من أن تلك الأم، كانت قد هجرته وهو طفلٌ؛ لتتزوج بعد وفاة أبيه، وتعاملت معه بأنانية، تركته وحيدًا يربي نفسه بنفسه، ولكنه - وكما قال

لي بعد ذلك، في ليالي سمرنا الطويل . إنه غفر لها؛ لأنه فهم . عندما كبر . اضطرارها لفعل ذلك، مع إدراكه لقسوة حياة أرملة بطفل، في حياة مثل حياتنا.. لذا راعها . رغم أنه لا يحبها على الإطلاق.

تزوجته؛ لأني كنت آمر وأنهى في روحه . كما أشاء، لم يكن له علاقات من قبلي، و أحببته أنا وأعطيته من نفسي . على الرغم من فكرتي، بأن الحب سيجعلني أضعف .

كان روحًا جديدة تتعلق برقبتي. فهو مثل أختي؛ لا يجيد التخطيط ولا التدبير.. ولكن لا يهم.. فهو في حد ذاته قمة لخطتي. طلبت من أعمامي الإرث . بقوة؛ لأن رَجُلي سيديره.. لم يكن لديهم مانع (أولاد الكلب) مادام المال سيكون في يد رجل.. ونساؤهم ستظل مصونة..

كنت أقود كل شئ . وأعصابي مشدودة على الشعرة. على الرغم من أن زوجي كان مثل البنت البكر، في خجله واستقامته وحبه لي.. إلا أنني كان يجب أن أكمل الخطة بطفلٍ منه.. حتى أتم سيطرتي عليه، إذا فكر أن يخرج عن طوعي.. قلبي يؤكد أنه سيظل على رقته، ولكن شيطاني يهمس بأشياء دائمًا..

حملت في طفلي، وشعرت أن كل شئ تحت السيطرة.. كنت أقود الجميع . بخبث وحرفة، وأحصل . دائمًا . على كل ما أريد.. ومازلت أرعى أختي، وأساعدها أن تجد رجلها المناسب؛ حتى تكتمل دائرتي.. صحيح أنني كنت أستهلك . في ذلك . أعصابي بشكل هستيري، ولكن المهم في الآخر، هو المصلحة كما كنت أردد لرجالي في المعركة. (زوجي وأختي).

في ليلة، نمت وحلمت أنني عُدت إلى البيت، فوجدت زوجى مرتبك.. ضغطت عليه؛ لأفهم.. فحكى لي بالتفصيل . كما اعتاد . وهو واثق من قدرتي على التعامل بحكمة مع كل الأمور.. كان يبكي ويهذي بالكلام.. ولكني فهمت بشكل أو بآخر أنه لمس أختي.. قبَّلَها.. وحاصرتني الصدمة.. وهاجمني وجع لم احتمله للحظة، فصرخت بشدة، وذُعِرَ هو من صراخي، فصرخ معى، وضربني وهو يبكي، وجاء ابن عمي على صوتنا العالي، وخَلَّصَنَا من بعضنا، وأخذه بعيدًا، وقال إنه يجب أن يكون هناك (قعدة عرب)؛ لنعرف لماذا تضرب زوجتك، رأيتني في حجرة مع أختى، وهي تبكي، وأنا أفكر أني أفسدت كل

شئ، كنت قد هدأت تمامًا، وعاد عقلي للعمل، ولُمْتُ زوجي . فقط؛ لأنه صرخ، وجعل الآخرين يسمعون بنا.

كان يجب أن يفهم، أنني أستطيع أن أستوعب كل شئ، وأن أعدّل خطتي؛ من أجل المصلحة، مصلحتنا العامة، أنا وهو وهي، كان يمكنني أن أقبل أن يكون بينهما قبلات، إذا أرداو، مادام ذلك سيحقق مصلحتنا . جميعًا . في النهاية،

وبينما أفكر في ذلك، شعرت بسيولة في فخدي، فنظرت ووجدت دماء كثيرة تتسلل مني، كنت أجهض جنيني، صرخت برعب، ورأيتني أصعد سلالم كثيرة، وأدق أبوابًا كثيرة، حتى أسعفتني امرأة لا أعرفها، اسمها إيفون، واستفقت من الحلم، وأنا بين يدي بنت، وليس ولد، ولكنني كنت أحمد الله؛ أنني أنقذت المصلحة.

أفقت مفزوعة، وزجى نائم بجواري في هدوء، وأختى بعيدة في بيت آخر، وطفلي مازال جنينًا في بطني، وسألت نفسي . بغضب . عن أي شيطان قذر يسكن روحي، ويصنع تلك الحكايات المخيفة؟! وتنهدت . بيأس وتعب . وأنا أستعيذ بالله، مما يحمله لنا الغد، أنا وهما!

هل سيأخذني إلى هناك؟

لوَّحت بيديها "بان" (باي باي)، ابتسمت ثم استدارت، وعادت بوجهها للأمام.. فتطاير شعرها..

ما معنى أن تلوح لك طفلة مودعة؟

الكبار يعتقدون . وقد أصبحت أنا الآن أيضًا كبيرة . بأن تلك دراما رخيصة، ولكن رغم قولهم هذا، أصر على أني كنت أعلم . لحظتها . أن تلك هي آخر مرة أرى فيها صديقتي!

الكبار كان يعتقدون . أيضًا . أنها ابنة موت!

كل هذا الذكاء والجمال، ما كان ليبقى طويلاً

الأشياء البغيضة . فقط . هي التي تبقى، الكبار يعتقدون ذلك.

لست جميلة . بالدرجة الكافية؛ حتى أحظى بالرحيل!

ولست بغيضة . بالدرجة الكافية؛ حتى أحتمل البقاء!

في مكاننا المفضل . تحت السرير النحاسى العالي، الخاص بجدتها . كنا نبقى بالساعات نلعب.. لم نكن نلعب.. ماكانت تحب أن أقول على هذا لعب.. كانت تنظر لي . بملأ رموشها، وعينيها البنية . في تواطؤ، وتقول لى: "لقد حان الوقت".

فأفهم.. وما أن يصبح السرير سقفنا؛ حتى تتغير كل الأشياء.. لا يمكنني . الآن . أن أذهب إلى هناك، فقامتي أطول من أن أبقى مستريحة . كما كنت وقتها.

لم تكن تحب أن تمثل أمًا وأبًا، أو مُدَرِّسَة وتلاميذ، مثل: الأخريات.. كانت تحفظ قصص جدتها . صاحبة السرير.. وصاحبة الكتاب الملون الكبير أيضًا.. كنت أنا . دائمًا . الأميرة، وهي إحدى الأقزام.. أمي ما كانت تراني إلا حولاء غبية.. هي فقط كانت تراني أميرة.. كنت أصدق.. وأنام بعمق بعدها.

لماذا تحضرين بقوة، يا صديقتي، وقت حيرتي مع اتخاذ القرارات المصيرية؟

رغم أنني كبيرة . الآن، إلا أن هناك من هن أكبر مني.

ماذا أتبع، حدسي أم نصائح الكبار؟!
صور الحياة المُعَلَّبَة الجاهزة.. أم أنا وقلبي، وما تهمس به روحي!
الكتالوج يبدو مُبْهَما أحيانًا.

أحتاج لتأكيد.. الجنة ستكون اليقين، هل سيأخذني الله . إلى هناك . مثلها؟

لماذا في حياة كل الأمهات قصص حب مهزومة، ومع ذلك يسعين . بكل قوتهن؛ لوأد الحب فى قلوب بناتاتهن؟
هل ثمة شئ آخر.. غير التعاسة.. تورثونه لنا؟
عندما توقفت.. تجمدت، وعندما تحركت.. تعقدت الأمور بشكل تراجيدي.
أين الفرج؟ هل سيأخذني إلى هناك؟
هل ساموت اذا ابتعلت ريقى المر جدًا
لماذا نصنع ذكريات حياة، إذا كان "الزهايمر" سيبتلع كل شئ في النهاية؟!
أنت وشبابي.. ودموعي!
أنت وحياتي.. وضياعي!
أنت وحيرتي. وعذابي!
هل سيأخذني إلى هناك؟

ورطة ريشة

رَسَمَتْهُ ـ مرة ـ وبين يديه قلبها ذائبًا، رأى اللوحة وتفاجأ جدًا، أن أحدًا يراه: جميلًا، عظيمًا، رقيقًا ـ هكذا، فهم أنها تحبه، قبَّلها في جبينها قبلة ود وإحساس بالشكر ـ لم يتكرر أبدًا بعد ذلك.

وبدأت حكايتهما، ولم يكن كل شئ ـ بها ـ كما هو ظاهر، فهي لم تكن ذائبةً به ـ كما أوحت له الصورة، في الحقيقة أنها رسمته؛ لأن مدينة حياتها مغلقة، ولم يكن بها رجل قريب؛ حتى يتسنى لها رسمه ـ بدقة ـ غيره فرسمته.

والحقيقة ـ أيضًا ـ أنها لم تكن تراه جميلاً ـ كما في اللوحة، ولكن فوجئت بسعادته في كون أحد يحبه، ويرسمه؛ فاشفقت عليه.

وظلت ترسمه؛ ليسعد، والشفقة تغطيها، وقد باتت تظن ـ مع الأيام ـ أن هذا الإحساس الذي يجرفها، ربما يكون هو الحب، الذي لم تتعرف عليه في عمرها من قبل.

وأدركت ـ مع الوقت ـ أن الشئ الوحيد الذي يربطه بها، هو أنها ترسمه، وأنها تحبه!

أما هو، فقد قال لها ـ بكبرياء: إنه لا يستطيع أن يحبها.. ولكن لا يمكنه أن يمنعها من أن تحبه وترسمه!

رغم قسوته لم تمكنها الشفقة الحانية ـ التي تكبلها ـ أن تعترف له، أنها ـ هي أيضًا ـ لاتحبه.. وأنها تود أن تفر بعيدًا عنه.

ولكن فترة طويلة كانت قد مرت.. وهي متورطة معه في تلك الحكاية، وكانت قد اعتادت على أيامها.. وهو جزء منها، واعتادت أن تتقن نقل إحساس حب زائف له، واعتادت إحساسها بالمسؤولية تجاهه! فهي كانت تعلم جيدًا.. أنه رغم هذا الكبرياء والإحساس بالعظمة ـ الذي يتملكه ـ إلا أنه يحتاج إليها أكثر من أي شئ في الحياة، وأنها ـ هي ـ الراحة والفرحة الوحيدة في حياته ـ حتى لو لم يعترف هو بذلك، أو حتى لو لم يدركه جيدًا ـ ربما كان هذا غرور منها، ولكنها كثيرًا ما رأته جالسًا أمام نفسه ـ في لوحاتها ـ وهوسعيد جدًا ومنتشى.

بل إنها توقفت فترة عن رسمه.. فكان يتعامل معها، كمدمن لا يجد مخدره، وإن كانت كرامته لم تسمح له أن يرجوها أن تعاود الرسم، فكان يضربها؛ تنفيسًا عن غضبه منها . لأي سبب يتحجج به، إلا السبب الحقيقي؛ إنه يفتقد صورته . وهو جميل . في عينيها، وفي لوحاتها.

وأذاها جدًا أنه يسئ معاملتها، وأن عمرها كله يضيع في رسمه، وهو يرفض أن تعرض لوحاتها على العالم؛ حتى يتسنى لها أن تحقق شيئًا لذاتها، أن تحقق نجاحًا أو وجودًا في المجتمع، يعوضها عن قسوته وعن كلمات الحب . التي لم تسمعها منه أبدًا، وعن حياتها التي تنسحب من بين يديها . فقط . في محاولات إرضائه.. الذي لا تصل لها أبدًا!

كان يحتفظ بها وبلوحاتها سراً . يرفه عنه في الخفاء، بغض النظر عن مدى عذابها، وهي تعيش هي وفنها تحت ركام أنانيته؛ لأنه يعتبر كل ما تفعله له حق مكتسب له.

وأنها تستمتع بكونه . فقط . قريب منها، ويسمح لها أن ترسمه، كان في لحظات صفاء نادر، يشعر بالذنب تجاهها، ويقول لها . وهو سارح . إنه ليس جميلاً . كما تراه . وإنها لا تعرف حقيقته. وكانت تنفي كلامه، وتحني رأسها؛ لتحتفظ . لنفسها . بحقيقة أنها تعرفه جيدًا، وتدرك كم الألوان الزائفة التي تضيفها على حياته وعلى اللوحات؛ حتى تحافظ على الخيال الكاذب بينهما.. إنها تحبه، وإنه جميل، وإنها راضية عن حياتها . بها الشكل!

تشجعت . في مرات . وأظهرت له أنها متعبة، وغير مرتاحة، وتريد . حتى على الأقل . أن تعلن عن نفسها ولوحاتها، فعلت ذلك . برفق جدًا؛ من خلال وضع رتوش في اللوحات، توحي بحالها الحقيقي. فكانت ترسم له نابًا خفيًا، وتضع طرف روحها تحته، أو ترسم قلبها به ثقب دائم النزف،

ولكنه كان يتعامى . بخبث مفضوح . عن تلك الإشارات، ويفسرها بأي شئ، إلا أنها ملت منه، ومن حياتها.

وبعد صبر طويل . سلبها أهم سنين عمرها . هربت منه، وهى تسحب ورائها، رأسها المشقوقة من أثر ضربة حديثة منه، تحججت بها، واحتجبت عنه في دير؛ يديره أشخاص طيبون . حقًا، وتكبّر هو أن يناديها.. ونظر إليها باحتقار.. وذهب.. وكان يثق أنها . حتمًا . عائدة!

ولكنها استكانت إلى الحياة الجديدة الهادئة، المريحة لأعصابها وجسدها، وتوقفت . تمامًا . عن الرسم، أو . بالأصح . عجزت عنه!

كانت مرتاحة.. ولكنها كلما اختلت بنفسها.. بكت بانهيار؛ لأنه لم يحاول أن يحتفظ بها - وهي التي كانت تظن، أنها مهمة فعلًا لديه - ولكن ظنها خاب.. فبعد شهور قليلة.. جاء يبحث عنها منهارًا.. ويرجوها أن تعود!

وفوجئت برجل آخر أمامها، رجل لا يعنيه كبرياءه، لا يهمه شيئًا، إلا أن يفيق من كابوس غيابها، وأن تعود الحياة كما كانت تمامًا.

ووعد أنه لن يؤذيها - مرة أخرى - فلقد عرف قيمتها، عندما حرم منها، واستشهد بحكمة تقول: "إن الإنسان لا يشعر بالنعمة.. إلا بعد زوالها."، وأحست - بعمق وصدق - ندمه واحتياجه.

وكانت على استعداد أن تعود لو أنه - فقط - وافق على أن يعلن عن وجودها، وعن فنها للناس، ولكن هو كان قد تعلم نصف الدرس فقط! فأصر على أن تعود، وتعيش له سريَّة - كما اعتادوا، إن هذا الإعلان كان سيكلفه جهدًا - كان يضن به عليها - وهو الذي اعتاد منها أن تُقَدِّمَ كل شئ - بلا أدنى مجهود منه، أردها مجانية - كما عرفها دومًا!

لكنها - ولأول مرة - وقد ساعده وجودها بعيدة عنه أن تصر على رأيها، وأن تكمل مشوار فرراها منه. ويأس هو - بعد قليل - عندما أيقن أن كل شئ.. لن يعود أبدًا كما كان! وعلل ذلك لنفسه - بحزن عظيم - بأنها - فقط - دورة حياة الأشياء والمشاعر، التي من المؤكد أنهت حبها له!

بعد فترة مرت أمام بيته، وجدته يضع إعلانًا - على غير عادة كبريائه - إنه يريد امرأة.. ومستعد أن يفعل لها ما تأمر به - مهما كان، بشرط - فقط - أن تحبه، وأن تستطيع رسمه جميلًا - طول الوقت!

ذهب اسود

لاحظت . اليوم . شيئًا غريبًا، أن المرات القليلة، التي دخلت فيها محل ذهب . سواء للشراء أو للبيع . كانت تنتهي بي باكية، أخفي دموعي، تأملت البنت التي تقف أمامي تشترى شبكتها، وكيف تبدو سعيدة باسمة، وحولنا زغاريد كثيرة: كنت أنتظر البائع؛ حتى يفرغ منها؛ لأبيع ما معي.

وتعجبت، وأنا أكبت دموعي.. أنني عندما كنت مثلها . في يوم . اشتري شبكتي، كنت أبكي . أيضًا، وبدموع مكبوتة أيضًا، ولم يكن هناك أي زغاريد من حولي، كان التوتر والانفعال يغمرني، أنا وخطيبي، وأمي وأمه، وأخته و زوج أمي، كنت . لحظتها . أود لو ينتهي الموقف بأسرع ما يكون؛ لأعود لحجرتي، وأبكي . كما يحلو لي . بعيدًا عن أعينهم جميعًا.

والآن . أيضًا . أود لو انتهيت سريعًا من بيع ما معي؛ لأخلو بنفسي.. وأبكي.

يومها كان زوج أمي ينتهز أي خطأ بسيط؛ ليثير مشكلة، وكان خطيبي وحبيبى هادئًا، يحاول أن يمتص غضبه . كما اعتاد أن يفعل، منذ اليوم الأول الذي جاء فيه؛ ليخطبني منه . منذ ذلك اليوم، وزوج أمي غير راضٍ . بشكل غير مبرر، تارة يقول: "إنه بخيل، ولا يريد أن يدفع . في . كثيراً."، وتارة يقول: "إن أمه تعامل أمي بعجرفة."،

كل يوم كانت هناك مشكلة جديدة، جعلت تلك الأيام . التي كان من المفترض أن تكون أجمل أيام حياتي . أيام قلق وكآبة.. أرجو أن تنتهي على خير، وأضغط على أعصابي؛ تارة لاحتواء غضب زوج أمي، وتارة لنفاد صبر وليد، وتارة لتأفف أمي من السيراميك!

كان الكل يتكلم في تفاصيل عن الأشياء، كلها أشياء، بحجة أنهم يريدون لي أحسن شيئًا، ولم يفكر أحد حقا في أن يُفْرِحْنِي، لم يفكر أحدٌ أن يرسم ابتسامة على وجهي، أو أن يبارك لي بالفعل، وليس بالكلمات الباهتة للتهنئة،

كنت أفكر يومها أن السبب هو يتمي، وأن لو كان أبي هنا، لكنت فرحت . كما يجب، ولكن تغيرت تلك الفكرة في الليلة التي سبقت يوم زفافي،

كان عليَّ أن أقضي ذلك اليوم عند الكوافيرة؛ لإعدادات ليلة الزفاف، وكنت أجلس سارحة مهمومة منهكة، أضع قدمي في ماء بطبقٍ بلاستيكي صغير؛ استعدادًا لتهذيب أظافر قدمي، وتنبهت على انفعال إحداهن أمامي، وكنت أعرف أنها عروسة . هي الأخرى . زفافها غدًا، وكانت تتكلم . بحدة . في الهاتف مع أحدهم، حول مرتبة سرير، وكانت تصر على استلامها اليوم، وأن الخطأ من المحل، ثم صمتت . فجاة . وكان من الواضح أن من يحادثها قد أغلق الخط فجأة، احمرَّ وجهها، ثم انفجرت في البكاء، وهى تدعو بالموت على نفسها، وشهقت من روحها، وهي ترد على عاملة الكوافير . التي حاولت تهدئتها: "إنها مش مكتوب لها تفرح، وأن من يوم الخطوبة وهى في قرف وحرقة دم "!

اندفعت موجات دموعي المدفونة بروحي، مع كلماتها . التي كانت تقرأها مسطورة من على سطح وجودي المجهد . ودمعت عيني.. وأسرعت لالتقاط منديل؛ لإيقاف الدموع قبل انهمارها، وكانت أم الفتاة . في ذلك الوقت . تحاول تهدئتها . أيضًا، ورن الهاتف مرة أخرى، وكان المتصل هو أبوها . وهو نفسه الشخص الذي تشاجر معها، وأغلق الهاتف، منذ قليل . أجابت الأم الهاتف، وأخبراته أنها تحت السيشوار، وسأل الأم أن تسألها عن الموعد تحديدا، الذي ستأتي فيه المرتبة، كان من الواضح أن الشجار على أشياء وتفاصيل أيضًا . مثل حالتي، وفهمت . لحظتها . أن المشكلة ليست في يتمي، فها هي شريكتي تبكي، وتشعر مثلي، على الرغم من أن لها ابًا، وأمًا!

في اليوم التالي، كنت . أنا . أدخل للكوافير في الوقت الذي كانت انتهت فيه العروسة الأخرى من زينتها تمامًا؛ لأنها كانت مرتبطة . هي وعريسها . بموعد بسفر، وكانت تبدو . على العكس من الأمس تمامًا . وهي ترتدي فستان زفافها سعيدة، وتقف لالتقاط صور مع العاملة، التي صنعت لها المكياج،

تفاعلت . بفرحتها الظاهرة . واعتقدت أنني أيضًا، سأفرح مثلها، عندما ألبس فستاني، والحقيقة أنني لم أفرح فور انتهائي من زينتي مثلها؛ لأن كان هناك مشكلة جديدة حول السيارة . التي كان من المفترض أن أزف فيها،

ولكني أتذكر جيدًا أني فرحت جدًا يومها، مع انتهاء الفرح، وعندما أغلق الباب عليَّ أنا ووليد، كنت فرحة . كما لم أفرح من قبل في عمري . ففرحة وليد الطاغية ملئتني ثقة وفرحًا، بأن القادم سيكون نعيمًا، غمرتني رقته . منذ ذلك اليوم . ولم تنتهِ، وكأنه يستمدها من بئرٍ . مثل بئر زمزم . لا ينتهي مداده أبدًا!

أنا . الآن . أبيع ذهبي؛ لأساعد وليد في الأزمة التي تمر ببيتنا، وحياتنا: أنا، وهو، وحبيبة . ابنتنا. أصيب وليد بطلق ناري في أحداث الثورة، ونحتاج إلى المال؛ للعلاج، ولاحتياجات أخرى.

رن هاتفي المحمول.. كان وليد.. أجبته . وكان يطمئن عليَّ، قلت له:

خلاص يا بابا، أنا خلصت.. وجايه حالًا إن شاء الله.

<u>حكاية ريما</u>

و الآن تعود ريما إلى عادتها القديمة .. لا شيء جديد الآن .. نفس اللاشيء في كل مرة .

بين الحين والحين .. تمل ريما الوجع والصمت الرهيب ..

فتخرج إلي هؤلاء المبتسمين لها على الدوام ..

تبتسم لأكثرهم إلحاحا ..

ويجلسان في ركن يرتبان المكعبات الملونة .. هنا المطبخ .. هنا حجرة النوم .. هنا حجرة الطعام ..

وهنا حجرة ابنتنا ..

وفي كل مرة تخبره بالاسم الذي تريده لابنتها ..

ويقول هو إنه يريد ولدا كما يفعل الجميع ..

وتختلف معه قليلا ، ثم تتنازل مثل كل مرة وتوافق على أن يكون ولدا وهي غير راضية تماما .

وفي لحظة ما يضغط على يديها .. فيراها غير مصدق تتفتت بين أصابعه .

ينزعج ويخاف ويبتعد مذعورا ..

فتعتذر له أنها نسيت أن تخبره بأنها هشة مثل بيوت العصافير ، وقابلة للكسر من أقل ضغطة شهوة بدون حب .

ويمنعها كبرياؤها من مصارحته أنها تنتظر حضنا عميقا .. عميقا جدا .. يلملم عظام جسدها التي نخرها البرد والدموع ..

وتقرر أن تخبره فيما بعد ..

ولكن فيما بعد يحدث مثل كل مرة مع أي منهم ..

تركل هي بقدميها الصغيرتين المكعبات .. وتتركه و تذهب بلا رجعة..

لأنها تجد أنه لا يجيد لعق دموع قلبها كما يجب ..

ولا يعرف ماذا يعني حضنا حقيقيا (مش كده وكده) ..

وتعود ربما إلى عادتها القديمة ..

تعود ليلا إلى غرفتها الرطبة المبللة ببخار تنهداتها ..

ومعها كيلو من الكباب وزجاجة بيبسي من الحجم العائلي ..

تفرش كل ما معها وتجلس تأكل وتشرب ولا تبكي ..

تنظر أمامها .. تتأمل الفراغات التي تركها الطلاء المتساقط (والتي ترفض إعادة طلائه)؛ لأنها ترى في كل مرة في الخطوط المتعرجة أشكال وجوه وحيوانات ورموز تعتقد أنها رسالة من الله بشكل ما .

فتتفاءل وتتطاير حسب الشكل الذى تستقبله في كل مرة ، و الذي يختلف في كل مرة .

تأكل حتى تغفو وهي تغمغم بمرارة ملؤها الكبرياء :

إنها ستكون بنتا ... ستكون بنتا ... ستكون بنتا إن شاء الله .

<u>عود كبريت</u>

أردت أن أحتفل معه بشكل مختلف.. كنت أريد استرجاع ما ضاع بيننا.. وما كنت أعلم أن ما فعلته سيجعل ما تبقى بيننا يضيع .. يضيع للأبد..

قبل عيد زواجنا الثاني عشر بأسبوعين، كنت في صالة الرياضة (الجيم).. وكل شئ حولي كالمعتاد.. سيدات يثرثرن ويثرثرن، وأجهزة رياضية تئن من أوزانهن، ومن بقايا الحكايات والفضائح الملقاة . بفوضى . مع المناشف، وقطرات عرقهن الفواحة بكل عطور الدنيا، في مزيج عجيب له رائحة نفاذة.. لا اسم لها.

أسمعهن . كالعادة . بلا اهتمام حقيقي.. وأنا سارحة في اللاشئ.. انتبهت . فقط . واحداهن تحكي موقفًا أثار فضولي بشدة.. والحكاية التقطتها من بين شفتيها أخريات.. وكلٌ منهن تكمل تفصيلة . لم تقلها الأخرى . واكتشفت أن الأمر منتشر بين سيدات كثيرات.. وحدث أن جربته الكثيرات، وضحكن جدًا.. وهن يتبادلن ردود الأفعال المختلفة لأزوجهن.. وكيف تقبلوا ما فعلته زوجتهن بشكل يختلف كل منهم عن الآخر. خرجت وأنا أفكر فيما سمعت.. وكلما تعمقت في التفكير.. زاد شغفي بتطبيقها، وفي اليوم التالي، كانت قد استولت على روحي . تمامًا . الرغبة في تنفيذها.

وبعدما خرج الأولاد للتمرين في النادي، وانشغلت خادمتي في غسيل الأطباق في المطبخ، اتصلت بسناء؛ وهى ليست صديقتي، لكنها أقرب سيدات الجيم لي، ويمكنني أن أجعلها تقسم على أنها لن تتكلم مع أحد عن ما أنوي فعله، وأظن أنها ستلتزم بالقسم، أظن ذلك!

عرفت من سناء باقي التفاصيل، ووعدتني أنها ستأتي معي إلى هناك، وذهبت إلى الطبيبة . حسب الموعد المتفق عليه . قبل عيد زواجي بيومين، وخفت بشدة، وأنا داخل العيادة، حتى أني فكرت أن أتراجع، وأعود، وأنسى كل شئ، وبدت لي الفكرة . لحظتها . سخيفة وصعبة، أن أقوم بعمل غشاء بكارة جديد؛ حتى يستعيد زوجي إحساسه بالدخول على بكر !

سيدات كثيرات قمن بذلك؛ للاحتفال بأعياد الزواج بشكل مختلف ومثير، يجدد الركود في الحياة الزوجية، التي أصبحت روتينية وآلية بشكل مرهق للأعصاب.

قامت الممرضة . التي كان من الواضح أنها مدربة على حالات الفزع . بتهدئتي وطمئنتني بأن العملية سهلة وبسيطة، سبق لسناء أن قالت . لي . هذا الكلام، وقالت . أيضًا . إن هذه الطبيبة تفرغت لإجراء تلك العملية . فقط . للزوجات؛ من باب المتعة والتجديد، ولا تقوم بها لفتيات، لذا فعيادتها تختلف عن العيادات الأخرى . التي تقوم بهذه العملية . والتي تشعر فيها أنك داخل مكان مشبوه، وغالبًا ما تتعرض الفتاة لمضايقات من الطبيب، وفي وقائع . غير مؤكدة . أن بعضهم لا يقومون بإجراء العملية، إلا بعد مضاجعة الفتاة أولًا!

لم أشعر بشئ . فعلًا . وقت العملية، كانت الطبيبة قد خدرت المنطقة التي تعمل بها . موضعيًا، و أغمضت . أنا . عيني؛ لأقنع نفسي أني لست هنا! وكنت أفكر في زوجي، وفي قلبي غصة كبيرة، أريد أن أستعيده، لا أتذكر . تحديدًا. متى فقدت اهتمامه بي، ربما في السنوات الأولى لعمر أولادي، وقتها كانت رغبتي في علاقتنا الحميمة، تكاد تكون منعدمة. لا أعرف هل كان هذا يرجع لأسباب فسيولوجية، أم من إنهاك التربية . حيث لم نكن وقتها أغنياء، مثل الآن، ولم تكن لي خادمة، ونهاري كله كان يضيع في رعاية التوأم، الذي رزقت به أول زواجي.

وعندما استعدت رغبتي، وجدت فتورًا تكوَّن لدى زوجي، وأصبح يتذكرني مرة كل شهر، أو مرتين على الأكثر !

أخاف أن يكون هناك شئ . في حياته . لا أعرفه، أريد أن أعود جميلة، ومثيرة له بكل السبل، تداعت الأفكار في روحي؛ حتى انتهت الطبيبة، وهنأتني بابتسامة، وقالت لي: "عمر العملية يومان فقط."، وكنت أعرف ذلك؛ فلم أعلق إلا بهمهمة شكر خافتة.

طلبت من زوجي . برقة . أن يتفرغ لي يوم عيد زواجنا، وأن نقضي الليلة خارج البيت، في أي فندق، كانت تلك فكرة سناء؛ لاستكمال إحساس العشيقة، التي يريدها الرجال بشدة . ووافق على مضض، وهو مندهش!

وغمرته . يومها . منذ بداية اليوم . بحبٍ طاغٍ، وعبرت له عن عشق ووله . مستخدمة تعبيرات حفظتها من المسلسلات التركية . وكان هو يتلقى ذلك بحذر متوجس، وبدون فهم . في أول اليوم . ثم اندمج معي في حالة الحب، وقضينا اليوم كعاشقين في أول أيام شهر العسل، وتمددنا على حمام السباحة، وشربنا كوكتيل عصير غريب، مذاقه رائع، وتعشينا في المطعم، ومن حولنا شموع رقيقة كتنهيدات للقمر، وقلت له إني أرتب له مفاجأة، وسألني . ضاحكًا: أي مفاجأة، أكثر من ذلك؟

آه.. كم أشعر . الآن . بالضياع.. وأنا أتذكر فرحتي يومها.. وكيف تمتعت بدفء حنانه في الفراش، كما لم أتمتع من قبل!

ولكن ما إن ولجني . في لحظتنا الحاسمة . حتى شعرت بألم طفيف، ليس مثل الألم المفاجئ في ليلتنا الأولى في الزواج، ولكنه ألم يشبه نزعي (للودنة)، التي تظهر أحيانًا في جانب أظافري. وتمدد هو بجانبي . لاهثًا . فأشرت له . خجلة . إلى القطرات الحمراء، على الشراشف البيضاء، وكانت بلون أحمر صريح، وليس كالوردي الشفاف، الذي رأيته . يومًا . مع الغشاء الحقيقي.

نظر إليها . بدون فهم، ثم بذهول . وسألني عن ماذا يعني هذا؟ حكيت له . باختصار خجول . عن ما فعلته من أجل إسعاده، صمت طويلًا، وعيناه لا تتحول عن البقعة، وعلى وجهه تعبيرٌ أفزعني، جعلني أصمت . أنا الأخرى . تماما، قام وارتدى ملابسه على عجل، وقبل أن يخرج، نظر لي . بشرود غريب . قائلاً: "أنتِ طالق"!

وانصرف.

عيون البقر

من دلائل خصوبتي المبهرة، أني أصنع من كل مَنِي إحساسك، أجنة عشق، وكائنات حبرية، لا أدعُ شيئًا . منك . يفلت مِنّي.

قرر كهنة المعبد ترشيحي؛ لأكون إلهًا للخصوبة والأمومة، يستهويني شموخ الفكرة، وكبرياء القدرة، وتردني الأيادي . التي أحرقت الكهنة وأساطيرهم؛ لأن الإله واحد.

أعرف أن الإله واحدًا، وله السماء والأرض. وما أنا إلا امرأة تسجد له شاكرة؛ لأنه جعلك ذكرها الأوحد، ولأنه منحنا هذه المساحة الطيبة من الأرض؛ لناكل منها الخس ونشرب البرتقال، ونسحب . ليلاً . أبقارنا، ونحن نلوح للشمس مودعين، ونغلق علينا باب دارنا.

ومع صياح الديك أجد في أحشائي جنينًا للفرح واللذة، منك، له رائحتك، وطعم الخس والبرتقال، وفي دمائه الأمان المسالم في عيون البقر،

حكاوى الست فرويد

الحكاية الاولى

تعرض الأفكار بكامل ملابسها؛ خوفًا من القيل والقال، وتمارس في الخفاء، كتابة عارية من علامات الترقيم و الهمزات، تستر فيها الألف . التي ترسمها طويلة . كل ما يأتي بعدها من عيون قراء التلصص والنميمة. لا تحتفي كثيراً بحرف الحاء، ملت من إعجاب الآخرين به، هنا حيث لديها شغفها الخاص بحروف غير متداولة، هنا تستطيع أن تتخلى عن فكرة بكاء الورد، التي تجعلها إنسانية، وتبدأ في المزاح بالرصاص والبارود، وتقتل كما يحلو لها. الشخصيات هنا سوداء، عالمها غامق وحقيقي، الشخصيات . هنا . لاتمارس مهنًا كالكتابة والرسم، الشخصيات . هنا . تمارس الموت، ولا تفكر فيه، تمارس الجنس ولا تتغنى به، تمارس القسوة، ولا تتبرأ منها.

لمن يهمه الأمر! هي العبارة التي قررت أن تكتبها على وجه أوراقها؛ من أجل من سيعثر عليها بعد موتها، عبارة حكومية نمطية، تحفظ لها كبريائها، بانها لا تستجدي قارئًا، بل تمنحه نصها.

الحكاية الثانية

تفض ورقة الحلوى البنية . الأولى، وتضعها في فمها، وقبل أن تستشعر طعمها، تكون فضت الثانية ورمتها على لسانها ، تمضغ الاثنين ببطء، وتمزجهما وتمط وتثني فيهما، دون أن تبلع شيئًا، وتظل تكورهما حتى تصبحان سلسان تحت أسنانها، بينما يحدث ذلك، تمص برقق السكر الذائب معهما، وتشعر شعورًا جيدًا جدًا، شعور اعتادت عليه مع مقدار عدد 2 "كلير" فقط، حلاوتهما يجعلانها تكتب نصًا، وتخيل شكلهما يجعلانها تتذكر وهي طفلة، الحلاوة في يد عمتها وهي تفردها وتكورها، قبل نزع شعر صديقتها، تتذكر انبهارها، وعمتها تقول لها: "إنها يتم تجهيزها بالسكر، تاخدي حته!" لم ترضَ

أن تتذوقها يومها، عفت نفسها ذلك، تفكر أنه إذا استطاع أحدهم بشكل أو بآخر أن يرى ما يحدث في فمها، لاعتقد أنه يصلح إعلانًا تليفزيونيًا لحلوى (كلير)، ستكون حملة أقوى من حملة شيكولاته"جلاكسي"المرفوعة تحت شعار: "هي اللي بتخلينا نعدي كل ده!"، وستصبح إعلانية مشهورة، وستهدي إعلانها بكل حب لـ" يارا عابدين"، ولن يعرف أحد، من يارا عابدين هذه!

الحكاية الثالثة

صباح حزين يذكرها بالشعر، الشعر الذي هجرته تحت وطأة صراع . لم تحتمله هشاشتها . بين التفعيلة والنثر. طوق الياسمين.. ولو تدركين!

تتذكر كلمات شعرية كتبتها هي منذ زمن بعيد، تكتبها على "جوجل"، تكتشف، تم نسخ وسرقة النص عدة مرات، النص قديم، والسرقة قديمة، والصباح حزين يذكرها بالشعر، وبطوق الياسمين،

أيام كانت تحب "الفيروز": نغمًا واسمًا ولونًا، وتعتنق نجاة في "قصص الحب الجميلة"، أيام، الآن تبيع أشياءً، أشياء، وتلعن "رزق اليوم بيوم"، يجهدها؛ لأنه يحتاج لليقين، وأين هي من اليقين؟

وأين الجميع من طوق الياسمين؟!

تلوم "أم كلثوم"؛ لأنها غنت لنزار قباني قصيدة واحدة . فقط، وتغفر لها؛ لأنها تركت المجال لـ"ماجدة الرومي"؛ لتحكي . لنا . عن طوق الياسمين.

الحكاية الرابعة

تخرج من قائمة المكتئبين؛ لتدخل عند العدميين، دون أن تعي تلك التسميات، يتحرك عمرك، قدرك؛ ليلقي بك في بئر كل منهما . تباعًا . وعندما تصادفك الكلمة . بعفوية . في مكان ما، لا تفهمهما جيدًا، ولكن تنظر إليها بألفة ومودة غير معتادة!

أيالأصدقاء أقرب لك . الآن . الصمت العميق، أم موسيقى الكلاسيك؟

عمر الخيام أم "إميل سيوران"؟

وماذا عن التعاسة؟ كيف انتهت بتلك اللطافة، وسلمتك . برقة . للعدم؟!

الآن أنت ناضج . مثلي . بما يكفي؛ للسخرية من قصص الحب ومن الأسى. تتخلص من أثاث بيتك بلا مبالاة بأحاديث زوار . غير مرغوب فيهم . عن الخواء وعن البرد، وعن أهمية السجاد في جلب الدفء. مشهد الأرضية عارية من كل وجود سواك، يؤكد لك حقائق عن القبر.

كل ليلة نصف ساعة قبل النوم، تكون صالحة لتسال العصافير . التي تسيقظ قبل الفجر بساعة، متى، وكيف سأموت؟

أصبح يستهويك تأمل كلماتها عن النهاية، التي تصنع فنًا حقيقيًا، مثل تسجيل آخر حفلات عبد الحليم حافظ لأغنية "أهواك"، الفرق بين أداء صوته في الشباب عن النهاية، هي المساحة التي تحركتها أنت . دون أن تلاحظ . بين قائمتي المكتئبين و العدميين!

نوستالجيا

كانتا تمسحان ممر الحجرات في الجوار منه، وسمعتا تنفسه مثل الحشرجة، لم تهتما بالأمر كثيرًا، فكم من حالات و أطوار غريبة تحدث . دائمًا . للعجوز السبعيني، القعيد في الفراش منذ أكثر من سنة..

عندما تبين بعد ذلك أنه كان يحتضر.. وأنها كانت حشرجة النهاية! انتابتهما قشعريرة؛ لانهما كانتا . دون أن يشعرا . على بعد خطوات من ملاك الموت!

مات جدي.. لم أنزعج . من الأمر . كثيرًا.. مثل الجميع؛ لأن الموت . كما يقولون . يكون أحيانًا راحة للميت وأهله.

عندما تصبح زائدًا عن الحاجة.. لديك فائض عمر، تنفقه في المرض والعجز وإثارة المتاعب للآخرين؛ يصبح أمر موتك عادي، بل ومنتظر، ولولا بعض من حياء، لقلت مُشْتَهى . أيضًا!

شعرت . فقط . بنزعة وجع طفيفة؛ لأنه مات وحيدًا، مات وحيدًا.. على الرغم من جوارهما منه في الممر.. ووجود ابنه نائم في السرير المقابل له . مرهق بعد يوم عمل طويل، غير واعٍ لأي شئ. احتضر دون أن يُنْطِقَه أحدٌ الشهادتين . رغم كل الزحام . رأى الموت دون صحبة، تُرَى كيف شعر وقتها؟ وهل فزع، وحاول الاستنجاد؟! أم تقبل الأمر ببساطة، وهدوء؟
هل بدأ حسابه في نفس لحظة القبض تلك؟
يارب ارزقني عمرًا بصحة.. وموتًا بعد الشهادة.. وونس في القبر. فليس من الضروري أن يكون موحشًا، فيما اعتقد!

أتذكر الجد ـ بشدة ـ اليوم بعد سماع جملة في حوار في الردايو ـ الذي أحب سماعه، وأنا في المطبخ: "إن الإجابة على أسئلتك القديمة تكون مريحة.. كما التنهيدة التي تطلقها.. عندما تكتشف أن جدك لم يمت وهو يشعر بالعطش." التشبيه جعلني أتذكر أن جدي مات وحيدًا؛ فترحمت عليه.. وقرات الفاتحة.

مات وحيدًا في غرفة رأيته فيها ـ دومًا، لأكثر من عشرين عامًا ـ دائمًا في جلبابه الغامق النظيف، ووجه المجعد جدًا، وخلفه الحائط المصفر الباهت الطلاء، في مشهد كان يبدو لي شبحيًا.. وغير حقيقي تمامًا.. كلما تعمق هو معي ـ أنا الفتاة المراهقة ـ في أحاديثه الفلسفية وآرائه المتطرفة عن: الله.. والوجود.. والجنة.. والنار.

نفس الحجرة التي حلمت ـ بعد ذلك بأعوام ـ أنني ألد فيها ولادة نظيفة – بدون قطرة دم – ابنةً فائقة الجمال؛ فسروا لي الحلم.. بأنه خير عظيم سيأتي بعد ألم عظيم! وبالفعل حدث الألم الرهيب، وأعقبته أمطار خير.

أشتاق ـ منذ فترة ـ لهذه الغرفة جدًا، الغرفة التي عشتها واقعا ونبوءة، وأنا هائمة في العوالم الموزاية للحلم.. والنوم.. والموت..

في يومي المتآكلة ساعاته بالاهتمام بابني، وبيتي، وعملي الحكومي ـ الروتيني بلا أي إبداع ـ بدون سبب أجد نفسي أرحل بروحي إليها، إلى غرفة جدي، لابد أنها متربة ـ الآن ـ وبها عنكبوت، كما يليق بغرفة ميت في شقة مغلقة، يوشوش فيها الصمت عن حكاوي عمر سابق، حافل بالتفاصيل، مزدحمة بدموع جدرانها، وظلال أشباحها الحالية.

أشرد، فأتخيل أني تركت كل شئ، تركت زوجي الذي ـ على الرغم من زواجنا منذ ثمانية أعوام ـ لم أدخل حياته ـ فعليًا ـ بعد، فهو يعيش معي صامتًا صمت الأموات، يدخر كل: أحاديثه، وأخباره،

وأحلامه؛ ليرويها لأمه، في لقاء يومي مقدس، لم يتخلف عنه أبدًا، مهما كانت الأسباب، ويعود لي، وقد أغلق فمه حتى الغد؛ لدواعي الخرس مع كل البشر إلا أمه!

تركت ابني، الذي هو السبب الفعلي لبقائي في الحياة، وهو اللجام الوحيد الذي يمنعني من الانطلاق لحياة أخرى أكثر قربًا من رغباتي . التي كفنتها، وأحلامي . التي لا أذكرها جيدًا الآن؛ من كثرة ما حرمت نفسي من اشتهائها!

أتركهم . جميعًا . إليها، إلى غرفة جدي؛ لأمارس نشاطًا يليق بقداستها في روحي، فأحلم أني عكفت على دارسة علم ما . لا أعرف اسمه . عن طرق التواصل مع الأرواح الراحلة بالموت، أريد أن أعرف كل شئ عن هذا العلم؛ لسبب جوهري شغلني طويلاً، وهو الألم المريع للفقد، الذي لا لقاء بعده، وعلى الرغم من أني لم أعانِ منه . حتى الآن . ولكني رأيته يرتع مجنونًا مدمرًا في روح إحدى صديقاتي، حزنًا على أبيها. فهي تعاني حنينًا لا علاج له، مهما مرت السنوات، وافتقادًا لوجوده، يصل حد الوجع في الصدر، واليأس التام من السعادة! تحتفظ بأشيائه وذكرياته، وتردد طوال الوقت كلماته، ولا تجد . في أي شئ . تعويضًا عن حنانه،

وأثار حيرتي . كثيراً . ألمها العظيم، ولكني كنت أحس بها وبدقات قلبها المعذبة جدًا؛ ربما لأني كنت أعاني . أنا الأخرى . من وسواس رهيب، من الخوف على ابني؛ أسترسل في أفكار مُرَّةٍ موجعة جدًا عن فقده . دائمًا . وأقاومها باحتضانه . بعنف . وبتضيق الخناق، يصل إلى حد القسوة على حريته وحركاته . خارج حدود نظري. فأنا لا أطمئن ولا أهدأ إلا إذا كان أمام عيني.

أتنهد . الآن . بعمق مع دموع خفية، وأنا أستعيذ من الشيطان الرجيم . كما نصحني شيخ الجامع؛ لمقاومة وسواس فقد ابني. أعرف أني لن أذهب إلى غرفه جدي، وأعرف أن خوفي على ابنى لن يحميه، وأعرف أني سأموت . بعد حياة لم أسعد بها أبدًا، أحيانا أتمنى . فقط . أمنية خبيثة؛ هي أن يعاني ابني بعد رحيلي، كما عانت صديقتي من حنين مريض لأبيها. أعشقه ولا أريده أن يتعذب، ولكني أرغب أن يذكرني أحدهم . بعد رحيلي، وأن لا يكون موتي . مثل جدي . وحيدة، رغم وجود آخرين، دون حتى تلقي الشهادتين، وبعد فائض عمر أثقل كاهل من عشت لهم وحدهم كل عمري، هذا الذي سينتهي بلا ضجيج . كما اكتمل بدون أحلام!

تقاسيم على الفراق

فالس الوجع

أعرف أنك في الجحيم . الآن، وأنا على فراشي . هنا . آمنه مطمئنة، أرتدي ملابسي الصيفية الخفيفة، واستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية، التي تذاع ليلًا في البرنامج الأوربي . والذي تصادف أني اكتشفته في أول أيامي معك، فارتبط بك ارتباطًا شرطيًا، كارتباط صوت الكروان بدقة قلب التسليم لله.

أتذكر . الآن . يوم دفعتني بقسوة، وكسرت رقبتي وقلبي؛ لأني كنت أتشبث بك بشراسة، غير مبالية أني أحترق، لم أكن أعرف كم هي مريعة النيران، وكنت تعرف، فأصررت على أن تبقى وحيدًا؛ حتى لا تؤذي بشرتي الناعمة بلهيب أهوج.

تؤنبني الأشياء حولي . الآن؛ لأني أبدو حالمة ووديعة، كما يليق بامرأة خالية البال، ورائقة المزاج، تسألني: كيف هذا، وحبيبي . هناك . على جمر العذاب؟!

إنها لا تعرف أنه طلب مني . وبإصرار . أن أكون سعيدة، أن أحقق أحلامي، أن أبقى، وأن أنجح، ثم دعا لي. وتأثرتُ . لحظتها . بالدعاء حتى عمق البكاء، وعرفت أن من أجمل كلمات الحب، هي دعاء حبيبك لك، هي كلامه مع الله عنك، والرجاء من أجلك!

أصنع كما أوصيتني يا غالي، هل تراني . الآن . وقد أخذتني نشوة موسيقى"الفالس"؛ فقمت لأراقصك بخطوات الهناء، أرى الشموع من حولنا، والبراح الذي لا يتسع لخطواتي، وأنا أدور حولك، وأنت تلمس

أطراف أصابعي، وهناك . في الركن . السمك في الحوض، يراقبنا بسعادة حتى ينام هادئًا بعدها، وعيني في عمق عينك؛ فيهزمني الشوق، أرتمي في حضنك، أراك . بعد ذلك . تَتَتَبَّع سبب البلل الشديد . على صدرك . وتكتئب؛ عندما تكتشف أنها أثر دموعي الغزيرة!

لا تهتم حبيبي، لا تلتفت لي، وأنا مُتَكَوِّمَة . الآن . على بعضي على أرض الغرفة، حيث لا شموع هناك، ولا أسماك، ولا أنت!

لا تصدق شهقات روحي وأنينها، وانسحاب "الفالس" منا، وهو يبكي، فأنا سعيدة، صدقني سعيدة . كما طلبت تمامًا!

نملة وحيدة فى الزحام

فى الميادين المزدحمة وعند تقاطع الطرقات أكون فى فزع النملة وهى تستقبل جيوش سليمان.. وأرغب بشدة أن أتكوم حول روحى فى وضع الجنين.. جنين فى ميدان عام، وحيد، مبتل من الرهبة، ينظر إلى السماء فلا يجدها زرقاء كما يفترض؛ لأن لوحات الإعلانات ملونة بهوس، وتعزو المساحة العلوية بشراسة.

أين أنت؟

هل يمكننى أن أغفر لك أنى أعبر الطريق بمفردى، وأكاد أبكى من الخوف الغريزى لدى من زحام الميادين وصخب منبهات السيارات؟ وأنى آكل بمفردى.. وأتنهد بمفردى.. وأحضر الحفلات بمفردى.. أرقد مريضة بمفردى.. أقرأ جريدة الصباح بمفردى.. والقهوة التى عاقبتنى بقرحة المعدة؛ لأنى أحتسيها وحيدة؟

أين أنت لأخبرك عن آلامها وعن الدوار بسببها؟ وعن الجنون لفقدك؟ وعن الأسى يا عزيزى؟ إنه ليس مثل الحزن.. إنه شىء آخر هل خبرته من قبل؟

هل عرفت كيف يغلفك فى فقاعة شفافة، فترى الوجود كله من خلالها محمل فقط بالأسى وأنت حبيس فقاعتك مثل الكائنات الفضائية الغريبة لا تعرف كيف يكون التواصل مع آخرين بجسور مبللة بالدمع..

والحياة بهذا اللون هل تدرك كم هى موجعة و مشوشة وغير محتملة؟

استبدلتك بألف نشاط وحكاية ولم أجد راحة.. وكلما ظننت أن الدمع جف.. يخالف نواميس الطبيعة لينهمر مطرا فى الصيف، ويضىء الوجع فى ضوء الشمس.

آه.. لا عليك، فالنملة أيضا لم تجد أحدا ينقذها من أقدام جيش سليمان، كما لم أجدك لتعبر بى الطريق، لم أجد يديك لأطمئن، تحسست بجانبى فلم أجد إلا الفراغ.. ولا شىء إلا الفراغ.

نفق الفراق

تنبهت . الآن . أني لم أبكيك كما يجب!

وقتها تلقيت الحزن بجسارة، لا تليق بقلب ليس به مكان لانكسار جديد،

وقتها فعلت، مثل الذي تعثرت قدماه في طوبة كبيرة، لم يتوقعها أبدًا، فانزلق في نفق عميق، فتجاهل أنه انزلق، وأن المسار اختلف، وأكمل السير، بخطوة ثابتة ورأس مرفوع، وكأن شيئًا لم يحدث، وبعد قليل اكتشف أن الظلام حوله أقوى من أن يتجاهله، أو يتعامى عنه، وأن ابتسامته الواسعة ليس لها معنى؛ لأنها لا تكشف إلا عن فم بأسنانٍ غارقة في دم القلب المذبوح، فتوقف، وانهار أرضًا، متكئًا على أقرب جدار . يلهث من حَمْلِ قوة ليست له، وحيد تمامًا، وخائف حتى من صوت أنفاسه اللاهثة، أغمض عينيه، وسمح لارتعاشة شفتيه أن تنطلق منذرة بالبكاء، البكاء الذي كان يجب أن أبكيه، وقت رحلت، ولم أفعل، لم أفعل يا وجع العمر! ربما لو فعلت، ورويت أرض النفق بالدموع، كان من الممكن أن تُنْبِتَ زهورًا جديدة؛ تعينني على البقاء تحت، وحيدة في الظلام، ربما كانت لمعة الدموع، دفعت

الأشباح الخفية . في النفق . أن تظهر، وأن تبتسم لي مطمئنة أني لست وحدي، وأن العشق غَرَّبَ من قبلي كثيرين، وسيُغَرِّبُ من بعدي أكثر، وأن الحياة . تحت . ليست خالدة، كما أعتقد، فقط بعض الوقت، وبعدها أطفو فوق بحيرة دموعي الدافئة، أطفو، وأطفو إلى أعلى؛ حتى تتلقاني الشمس وتحتويني، وتبتسم لي السماء.

سأبكي الآن يا حبيبي، سأبكي كثيراً، كما تتسع جراحي، وقدرة روحي على التشظي دمعًا، وسأطفو، وسأنجو، فالشمس هناك، هناك في الأعلى تنتظرني؛ لأعيش من جديد.

شيء لا ادرى اسمه

من محظورات طفولتي الاقتراب من بيت عم عاطف ..

ولم يكن هذا المحظور خاصا بى ، بل كان يخص كل أطفال شارعنا..

كلنا ، أمهاتنا حذرتنا من أن نتكلم مع عم عاطف ، فضلا عن الاقتراب من بيته أو ارتكاب الخطيئة العظمى بدخول البيت معه.

لم يشغل الأمر أحدا من الأطفال وخصوصا أن بيت عم عاطف لم يكن به أطفال او أشجار توت حتى نهتم به..

ولكن الأمر كان مختلفا معي ، لأنى كنت طفلا فضوليا حاد الذكاء ، ولا يقبل بالمسلمات..

فأذكر مثلا أنهم قالوا لى إن السرقة حرام..

وإن من يسرق مرة، لابد أن يعتاد السرقة ولن يستطيع مقاومتها..

وذات مساء ، وأنا على السرير بعينين مفتوحتين قبل النوم أتخيل اشياء وأشباح وراء الستارة ،

قررت أن أثبت أنه يمكنني أن أسرق مرة واحدة وأن لا أعتاد الأمر كما يقولون.

هي مرة واحدة فقط..

ودبرت جريمة صغيرة بسرقة عشرة جنيهات من نقود أمى

ثم شعرت ببعض الشفقة عليها وأنا أراها تدور حول نفسها معظم النهار تبحث عن النقود الضائعة ، ولكن الشفقة لم تكن أقوي من تنفيذ خطتي ،ومن شراء كل الأشياء اللذيذة من مقصف المدرسة ، وأن أقف احتسى زجاجة (الكولا) مع قطع (الشبيسى) من الحجم الكبير والذي لم يكن يسمح لى مصروفي أن اشتريها مجتمعة أبدا..

فى اليوم التالى فككت النقود من مكتبة أمام المدرسة حتى لا يثير المبلغ الكبير شكا فى نفس مدرسة المقصف

وفى الفسحة تحركت بغنيمتي نحو المقصف للشراء ، ثم توقفت بالقرب منه لأنه كان مزدحما كما هو الحال دائما في أول أوقات الفسحة.

انتظرت قليلا وأنا أتابع الزحام حتى يقل ، ثم برقت فى رأسي فكرة.. أن أدخل فى الزحام وأسحب كيس الشبيسى من المدرسة دون أن تشعر..

ودق قلبى بعنف وفاجأنى المغص والرغبة في الدخول إلى الحمام عندما أدركت أن هذه ستكون سرقتي الثانية ،

وأن النجاة من الجريمة الأولى هيأت لي أن الأمر سهل..

وقد شعرت به سهلا فعلا

ودبرت الأمر بسرعة البرق فى عقلي الصغير واندفعت أزحام زملائي . وعندما أصبحت فى المقدمة كانت المدرسة مشغولة بشدة بين عشرات الأيادى الممتدة لها بالنقود.

وبخفة تسللت يدي وخطفت الأقرب إ لى ، وكان بسكويته بالشيكولاته

وفى مرحلة ما ، بينما كانت يدي تنسحب لتعود لى بالبسكويتة قبض يدي احدهم على كفى وهي مطبقة على الغنيمة..

وغاص قلبي فى متاهات خوف عنيفة وأنا أسمع صراخ المدرسة وسبابها ثم صفعات من زميلتها..

ولا أذكر إلا أنى كنت اردد أن معي نقودا أخرجتها من جيبي وأنا أبكى وأردد بتشنج إنى كنت سأدفع..

وانتهى الموقف وحمدت الله أن بكائي الهستيري قد نجانى من طلب استدعاء ولي الأمر، حيث كنت أتشنج وأصر على أنى كنت أنوى الدفع ،مما قد جعل الشك يدخل قلب المدرسة أنى ربما أكون مظلوما فعلا .

أما عم عاطف فكان يدور حوله همس من الكبار أثار فضولي

لماذا هذا الرجل بالذات ؟؟

كنت أعرف عنه أن لديه ابنة وابنا ، وأن الولد قد هاجر إلى أمريكا وأن البنت قد أحبت شخصا من اقاربها وتزوجته ، وتركت البلد أيضا وهاجرت إلى كندا.

ولم يبق فى البيت الكبير ذي الدورين إلا عم عاطف وزوجته التي فضلت لأسباب مجهولة أن تتركه وتعيش في بيت للمسنات تابع لجمعية خيرية.

لماذا عم عاطف بالذات؟!

كنت أراه جالسا وراء شرفته فى الدور الارضى ، يتابع لعبنا بشرود وحزن ويبلل البقسماط في كوب الشاي بالبن ويشربه فى صمت شديد.

ربما كان يعلم تحذير الكبار لنا إذ أنه كان يكتفي بالنظر إلينا ولا يحاول التحدث معنا.

وقررت أن أعرف سر هذا الرجل وبيته المحرم علينا ، من دون بيوت الشارع كلها.

وكان الخيال قد جمح بي ، وصور لى أشياء تحدث في البيت إذا أنا عرفته فسأنضم للكبار و يمكنني وقتها أن أغيظ كل الأطفال..

فى وقت مغارب اقتربت من نافذته وابتسمت ،

فابتسم لى وأبقي بصره معلقا بوجهي.

اقتربت أكثر وقلت له : ازيك يا عم عاطف

رد تحيتي فرحا ودعاني فورا للدخول لشرب الشاى بالبن بالبقسماط معه

ودخلت و قلبي يدق دقات عالية تشبه دقاته عندما كنت على باب بيت العفاريت فى الملاهي

فى الداخل أجلسنى عم عاطف ودخل ليصنع لى الشاى وهو يرحب بى فى سرور بالغ

كان البيت نصف معتم مثل كل بيوتنا فى وقت المغرب ، فلا إضاءة للنور إلا بعد أن يحل الظلام ، وذلك تفاديا لبقاء الذباب فى البيت.

وأذكر الان ان رائحة اليبت كانت معطنة وكأن هناك ماء لم يجفف جيدا

عاد عم عاطف بالشاى ثم سحب كرتونة قديمة من تحت الكنبة وجلس يفرجنى على ألعاب قديمة ، فاستولى على انتباهي قطار طويل أخذت أبعث به فى محاولة لتشغيله

وعندما تحرك القطار صحت فرحا : هيييييه

فضحك عم عاطف عاليا واحتضننى مهنئا بقوة ،

ثم ضغط أكثر على ذراعى وظهري وانا بين يديه وشعرت بضغطه يزداد وأنا أحاول الانفلات منه.. خفف من ضغط يديه ، وكنت مازلت فى حضنه عندما أصبح وجهه فى وجهى فقبلنى بعنف فى فمى

اشمئززت منه ومن القبلة ، وانفلت بعنف منه وانا امسح بقايا من لعابه على شفتى ،
وملكنى الخوف بدون سبب ، و شعرت أن هناك شيئا لا أستطيع فهمه
قلت له بمجرد ان تركني: انا ماشى واتجهت نحو الباب

فسمعته يناديني ويقول إنى لم أشرب الشاي بعد ، ويرجوني أن ابقى.
ولكنى لم أجبه..
وخرجت وقد حل الظلام تماما فى الخارج.
جلست على الرصيف وفى قلبي غم عنيف لا أدرى سببه.

لمحت عم عاطف وهو وراء نافذته ، وبيته غارق في الظلام..
ولا أدري إ ن كان ذلك حقيقة ام خيال ؟ ولكنى رايته يبكى.
بوشاية صديق خبيث عرفت أمى أنى دخلت عند عم عاطف
فضربني أبى علقة ساخنة وكنت أبكى وأنا أردد : إنه فقط دعاني على الشاي باللبن
وسألنى أبى : فقط
إجابته بصدق كاذب : فقط
وكنت صادقا قليلا لأنى لم أكن أعرف ما هو الشئ الآخر الذي حدث والذي كان يخشاه أبى..
ولكنى أيضا كنت أعلم أنه حدث دون أن أدري كنهه أو اسمه.
ولم أدخل بيت عم عاطف مرة أخرى ،
ليس لأن أبى ضربني ،
ولكن لأني كرهت هذا الشئ الذى لا أعرف اسمه..

شموس معتمة

أعتقد أن ما من رجل . من رجال عمري الأربعة . رآني كاملة؛

لسبب متعمد أو ربما . هي مجرد . حركة كونية! كان كل رجل يأتيني من اتجاه، فيرى . فقط . الجزء المتاح من اللوحة، دون باقي الأجزاء،

لم يستدر أحدهم؛ ليقف أمامي؛ ليراني من كل الاتجاهات. كنت مجرد كوكب لا يضئ منه، إلا المساحة التي تقع عليها الشمس، ويبقى الباقي في الظل، وشموسهم كانت تنير في كل مرة جزءًا مني، وتترك الآخر في العتمة، فلم يعرفني أحدهم كاملة!

ربما لأنى أبدو . كالحقيقة . كريهة وغير محتملة، إذا رأيتها متكاملة، ومن البشاعة التي تستدعي الاكتفاء، بوهم البعض خير من دمار الكل. وربما لأن كل رجل يرى . فقط . ما يحب، أو ما يساعده على تقبل الآخر. لم أحاول . من جانبي . دفع أحدهم لمعرفتي بشكل كامل؛ لأسباب تتعلق، بأن ما من أحد منهم، كان يحرك بداخلي رغبة الأنثى في التعري أمام رجل!

من الممكن أن تنجح . بشكل أو بآخر . أن تنزع عن امرأة ملابسها، وأن تنام معها على فراش، أو تلف يدك على خصرها، وتلف بها في حلبة رقص، أو تتشابك مع أصابعها وأعصابها في عناق . في خلسة من الوجود . ولكن رجلاً واحداً . فقط . في عمرها، هو الذي تتعرى معه حتى النخاع، يرى منها: الدم، والحس، والشريان، يرى منها: الخفق، والدمع، والضحك، والهذيان، يرى منها: الوجع، والصمت، والصخب، والانهزام!

رجلٌ تضئ شمسه كل العتمة؛ فيشيع النهار، والنور، والدف؛ ويكتمل وهج الحياة. رجلٌ لا تستحي

منه، تكون معه بلا أقنعة أو رتوش، بلا ابتسامات تقليدية أو دموع مزيفة. الرجل الشمس . في العمر . قد يأتي، وقد لايأتي! الأمر له علاقة . أيضًا . بحركة: النجوم، والكواكب، والاقدار، والكثير من القسمة والنصيب!

وجهان لمرآة واحدة

الوجه الاول

قبضة القلب السادية، تهدأ ـ قليلًا ـ ما أن تفتح باب غرفتي، وتدخل.

تجلس بجواري على فراش مبعثر.. تسأل عن حالي، عن أرقي، عن ليلتي، التي لا أجرؤ على وصف سوادها القاتم لك.. اكتفي بهمهمات.. تعد إفطارًا.. ولا تنسى وضع قطرات من الليمون على الفول ـ كما أحب، تجلس.. تأكل.. وأشرد أنا.. انتبه ـ في لحظة ـ ويدي تقطع رغيفًا ـ ببطء.. انتبه على يدك الفارغة من الخبز.. تنتظر ـ برحمة ـ أن أقطع لقمتي.. دون إزعاج. أسحب يدي بسرعة.. تأخذ خبزك.. تحكي لي.. ولا أجيب إلا بهمهمات.. تظل تحكي.. تسألني عن رأيي.. أفكر.. أقول رأي.. تعارضني.. أعارضك.. أفيق، وقد مضى بيننا أكثر من ساعة في الحكي.. وقد تفككت ـ تمامًا ـ قبضة القلب السادية.. أفكر في الاستحمام.. وعندما أنظر للمرآة، أسخر من ردائي المتسخ، وأسألك كيف تتحملني؟ تُقَبِّلُ جبيني، وتضحك.. حبيبتي بقى... هاعمل أيه؟!

أستحم؛ من أجلك. أغير ردائي من أجلك.. أندم ـ للحظة ـ على شعري، الذي تم تقطيعه بمقص أحمر غبي، كنت أمسكه؛ لأقص كل يوم خصلة لا أقوى على فك تشابكها.. تسألني.. وأنا وراء باب الحمام.. أعملك شاي معايا؟

فأجيبك: أنني انتهيت، وهاعمل أنا الشاي.. يا قلبي.. أدخل المطبخ ـ الذي أهجره لأيامٍ، لا آكل فيها شيئًا.. وأنظفه ـ بحماس؛ من أجلك.. من أجلك فقط.

الوجه الثانى

لا يمكنني أن أتحرك من هنا، فأنا سترك الوحيد والأخير، أضع قدمي . برسوخ وقوة . داخل بقعة الضوء المتاحة لي في حدودي الضيقة، عيناي في اتجاه آخر، ولكني أراك جيدًا، أرعاك جيدًا، أعرف أنك لا تحتاج شيئًا، إلا أن تدفن وجهك . هكذا . بعيدًا عن العالم، تصلب واستقامة جسدك، محاولة . جدية منك؛ لتجميل المشهد، الذي ليس لديك . حتى . القدرة الكافية على النظر إليه،

انظر . كما تشاء . في فراغك المؤلم، لن أتعجل عودتك لي من نوبة انهيارك، كما اعتدتُ، سأجلس أمامك؛ أستر عورة روحك عن عيون البشر، سأنتظر، والجميع يظنونني حبيسة لا أملك إلا بقعة ضوء وحيدة، في غرفة خاوية إلا منك، لديَّ من الصبر ما يكفي لأنتظرك؛ حتى تتحرك ببطءٍ . كعادتك، خطوات هزيلة تضطر إليها، ولا تقوى عليها روحك المنهكة، خطوات لا تسطيع أن تقاومها؛ لأنك تشعر بي، وتدرك أني أنتظرك، وأنا أعرف . يقينًا . أن ذلك هو الشئ الوحيد، الذي سيجعلك ترفع وجهك المدفون بعيدًا؛ لتلقي به أولاً في رحمي، ثم في حضني، ثم في عيوني، وقتها.. سأستدير لك.. وأتخلى عن بقعة ضوئي، وقتها . فقط . سأبتسم.

الكبار كان يعتقدون - أيضًا -
أنها ابنة موت!
كل هذا الذكاء والجمال،
ما كان ليبقى طويلاً
الأشياء البغيضة - فقط -
هي التي تبقى،
الكبار يعتقدون ذلك.
لست جميلة - بالدرجة الكافية؛
حتى أحظى بالرحيل!
ولست بغيضة - بالدرجة الكافية؛
حتى أحتمل البقاء!

لوحة وغلاف: بسمة حسين
وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
المجلس الأعلى للثقافة